تاريخ ما بين السطور

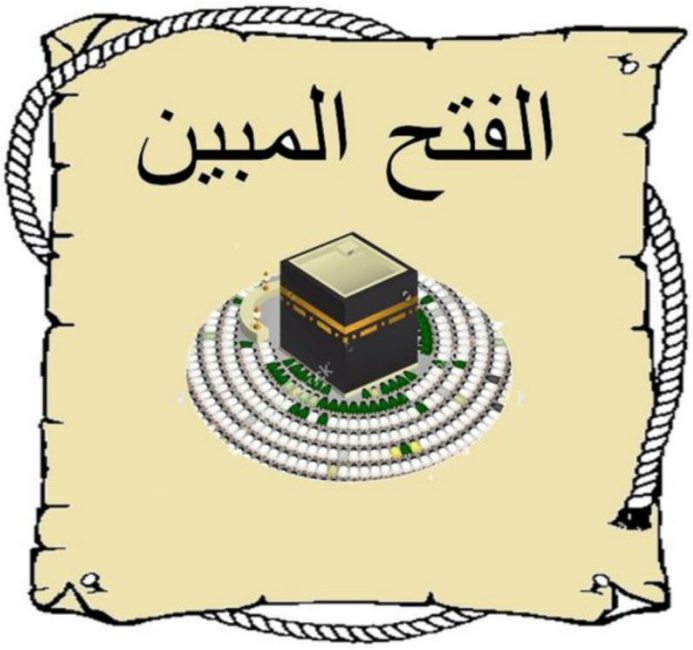

رمضان مصطفى سليمان

حين يكتب التاريخُ نفسَه بمداد الصدق، وتتكلم الأرواح قبل الأقلام

أبطالُها هم مؤرّخوها، تلك ليست جملةً تُقال للتزيين ، بل حقيقةٌ كبرى تميّز التاريخ الإسلامي عن سواه ، خاصيّةٌ نادرة كندرة الصدق في زمن المصالح ، ومَعْلَمةٌ سامقة في سجلّ الذاكرة الإنسانية . ففي غيره من تواريخ الأمم ، كثيرًا ما يكتب الغالبُ تاريخَه ليُجمِّل قبحه ، ويبرّر أخطاءه ، ويكسو الخيانةَ عباءةَ الحكمة. أما هنا ، فالتاريخُ يُروى بقلوبٍ خاشعة ، وبألسنةٍ ترتجف خشيةَ الكذب ، وبضمائرَ تخاف الله قبل أن تخاف الناس.

وإن اقتربت بعض الحضارات من هذه الميزة عبر كتابة المذكرات الخاصة ، فإن تلك المذكرات كثيرًا ما وُلدت معطوبة : حافلةً بالتبريرات ، محشوّةً بالأعذار، مغموسةً في نرجسية الذات ، حتى إذا ما واجهها شهود العصر ، طعنوها وكذّبوها ، وفضحوا ما فيها من تدليسٍ وتزوير.

أما نحن ، فسنمضي اليوم إلى أحداثٍ غيّرت مجرى التاريخ ، لا لأن السيوفَ صُقِلت ، بل لأن القلوبَ صَدَقَت. أحداثٍ إسلاميةٍ أبطالُها هم مؤرّخوها ، ورُواتُها هم صُنّاعُها. فلنُنصِت إلى أولئك الأبطال ، إلى شاهدٍ لم يكن مجرد راوٍ ، بل كان قلبًا نابضًا في قلب الحدث.

ثانيَ اثنينِ إذ هما في الغار،

وأحسبُك ، أيها القارئ العزيز، قد أدركتَ من نعني بقول الله تعالى . أجل، هو أبو بكر الصدّيق.

+

جلس الصدّيق ، وقد أحدودب ظهره وقارًا لا تعبًا ، وحلّق حوله أبناؤه وأحفاده ، عيونٌ متعطّشةٌ للسماع ، وقلوبٌ تستشعر أن ما سيُقال ليس خبرًا ، بل ميراثُ روح.

قال ، وقد تنفّس طويلاً كأنّه يستخرج من صدره ستّ سنواتٍ من الشوق المكظوم:

يا أبنائي، تلك كانت أيّامًا شديدة القسوة ، لا على الأجساد ، بل على القلوب ، ولا سيما قلوبَ المهاجرين .

قاطعه أحد الفتيان ، وقد استوى فضوله على عرش السؤال:

ولماذا المهاجرين يا أبتاه دون الأنصار؟

ابتسم الصدّيق ، ابتسامةَ من يعرف وجع السؤال قبل جوابه ، وقال:

لأنهم يا بنيّ هم الذين فارقوا ديارهم بمكّة منذ ستة أعوام ، وبعضهم منذ أكثر من ذلك. تركوا مرتع الطفولة ، وملاعب الصبا ، ومجالس الشباب. خرجوا من بيوتٍ كانت تعرف أنفاسهم ، ومن طرقٍ كانت تحفظ خطاهم. خرجوا لا طلبًا لدنيا ، بل فرارًا بدينهم من عسف المشركين ، وخوفًا أن يُفتنوا عن إيمانهم .

سكت قليلاً، ثم تابع بصوتٍ انكسر عند أطرافه:

لكن الفراق، مهما كان في سبيل الله ، يظل فراقًا. لم يمنعهم إيمانهم أن يحنّوا ، ولا قوّة يقينهم أن تدمع أعينهم. كانت القلوب تهفو إلى مكّة ، إلى مسالكها ، إلى ظلال كعبتها ، إلى البيت الحرام ، إلى الطواف حيث كانت الأرواح تُغسل قبل الأقدام .

قال أحدهم:

ألم يُحدّثوا رسولَ الله ﷺ في هذا الشوق؟

تنفّس الصدّيق ، كأن الذكرى قد طرقَت باب قلبه دون استئذان:

في أوّل عهدنا بالمدينة ، رأى رسول الله ﷺ أخانا بلالًا في مرضه ، يبكي وينشد شعرًا يفيض حنينًا إلى مكّة . فاقترب منه ، ووضع يده الرحيمة على صدره ، وقال بصوته الحاني ، المبلّل بدمع المحبّة:

يا بلال، دعِ القلوبَ تستقرّ .

ثم أطرق الصدّيق برأسه ، وقال:

جاءت بعدها بدر ، ثم أُحد، ثم الخندق، اشتدّ عود الإسلام ، واستقرت أقدام الحقيقة في أرض المهجر. لكن القلوب، القلوب يا أبنائي لا تنسى. عاد الشوق ، وأوّله قلب رسول الله ﷺ. وكثر الذين تمنّوا أن يقولوا له: سر بنا إلى مكّة معتمرين لا محاربين ، لكنهم كانوا يكتمون أشواقهم ، ويحاصرون دموعهم ، مخافة أن يحزن رسول الله إن عجز عن تحقيق أملهم .

سأله أحدهم ، وقد لامس السؤالُ موضع السرّ:

وأنتَ يا أبتاه؟ ألم تُحدّث رسول الله ﷺ؟

رفع الصدّيق رأسه ، واستوى صوته على مقام الهيبة:

ما كنتُ لأُبدي لرسول الله شيئًا لم يُؤمَر به من ربّه .

ثم أشرق وجهه بذكرى مخصوصة ، وقال:

حتى جاء يومٌ زرتُ فيه ابنتي عائشة ، زوج رسول الله ﷺ. فقالت لي ما لم أستطع كتمانه عن صديقي عمر.

+

هنا تغيّر نَفَسُ الحكاية ، كأنّها انتقلت من الذاكرة إلى المشهد.

قال الصدّيق:

لقيتُ عمرَ في طريقٍ من طرق المدينة ، فبادرني ، ووجهه يفيض سرورًا: يا أبا بكر ، والله ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ مشرقَ الأسارير ، باسمَ الثغر ، كما رأيته هذه الأيام . كأنّ وجهه فلقةُ قمر! .

قلت له، وأنا أبتسم بحذر الأسرار:

يا عمر ، لقد قالت لي عائشة ما لا أحبّ أن أُخفيه عنك ، ولستُ أخون بذلك سرّ رسول الله ، فقد أذن لها أن تقول .

فضحك عمر، وقال بسكينة الواثق:

ما أحسبُ عائشة قالت لك غير ما قالت لي حفصة .

قلت:

وما ذاك؟

قال ، وعيناه تلمعان ببشرى الفتح:

عزم رسول الله ﷺ أن يسير بنا إلى مكّة، معتمرين .

هنا ارتجف صوت الصدّيق ، لا خوفًا بل خشوعًا:

قالت عائشة: رأى رسول الله ﷺ رؤيا سرّته. رأى المسلمين يدخلون مكّة آمنين، محلقين رؤوسهم ومقصّرين. ثم رأى بلالًا يؤذّن ، فصلّينا ، ثم أشرقت الشمس ، فأخذ رسول الله ﷺ عودًا ، فما مسّ به صنمًا من أصنام قريش إلا انكفأ على وجهه .

سكت الصدّيق ، وساد الصمت ، كأنّ الأرواح كلّها تشاهد الرؤيا.

ثم قال عمر ، وكأن صوته ما زال يتردّد في الأفق:

يا لها من رؤيا، يا أبا بكر.

+

وهنا، يا قارئ التاريخ ، تدرك أنّ ما جرى بعد ذلك لم يكن مجرّد مسيرٍ إلى مكّة ، بل مسيرَ قلوبٍ إلى اليقين ، وأن صلح الحديبية ـ الذي ظنّه بعضهم دُنيّة ـ كان في ميزان السماء **الفتحَ المبين**.

فتحٌ لم تُكسر فيه السيوف ، بل انكسرت الأحقاد .

فتحٌ لم يُسفك فيه الدم ، بل سُفكت فيه بقايا الجاهلية.

فتحٌ كتبه الصادقون ، وروته القلوب ، وشهد عليه التاريخ، حين كان أبطاله هم مؤرّخيه.

حين تكلّم الإيمانُ

لم تكن تلك الليلة عابرة في ذاكرة التاريخ ، ولا كانت حديثًا يمرّ كما تمرّ الرياح على كثبان الصحراء. كانت ليلة تتثاءب فيها الأرواح بين خوفٍ ورجاء ، وتتصارع في الصدور معادلات العدد والعدّة مع حقائق الإيمان واليقين.

هناك، في يثرب، حيث كانت النخيل شهودًا صامتة على تحوّل العالم ، وحيث كان الزمن يستعدّ لأن ينقلب على نفسه ، دار الحوار، حوار لم يكن بين رجلين فحسب ، بل بين عقلٍ يحسب ، وقلبٍ يثق ، وبين بشرٍ يرى الواقع ، وإيمانٍ يرى ما وراءه.

قال عمر، وعيناه لا تستقرّان ، كأنهما تقيسان المدى بين الحلم والسيف:

إنها الفتح يا أبا بكر، أندخل مكة على قريش، فنحطم أصنامها؟

ثم سكت لحظة ، كأن التاريخ كلّه ضغط على صدره ، وتابع بصوتٍ أثقلته الذاكرة:

كيف وقد ألبّت قريش علينا قبائل العرب يوم الأحزاب ؟ كيف ، ولا يمرّ يوم إلا ويبعث إلينا أبو سفيان من يتوعّدنا ، ومن يتحدّانا ؟

كنتُ أسمع في صوته صرير التجارب القديمة ، ورنين الخندق ، وصهيل الخوف الذي لا يزال عالقًا في أطراف الذاكرة . قلت له ، وأنا أضمّ الكلمات ضمّ اليقين:

بل ويستعين بشعراء المشركين ، ويبعث مندوبيه إلى قبائل العرب حول يثرب ، يحذّر شبّانها من الإسلام ، ويهدّد بالسير إلينا ليستأصل هذا الدين من جذوره.

سكت عمر ، وسكتت معه الأصوات ، كأن الليل أنصت.

فقلت ، وقد استقرّ الإيمان في قلبي استقرار الجبال:

يا عمر، وما قدر هذا كلّه إذا أراد الله لنا النصر؟ واللهِ إنا لمنتصرون.

نظر إليّ نظرةً طويلة ، كأنها تبحث في وجهي عن جوابٍ يتجاوز المنطق ، ثم قال:

صدقتَ يا أبا بكر.

لكن الصدق ، وإن أراح القلب ، لا يقتل الأسئلة كلّها.

قلت له:

فما الذي يشغل بالك إذن؟

تنفّس عمر بعمق ، وقال ، وكأنه يخرج ما في صدره دفعةً واحدة:

يشغلني أننا قِلّة يا أبا بكر. قريش قادرة أن تجمع جيشًا كالرمل والحصى، إن أدركت أننا نقصد مكة.

كان كلامه سيفًا من عقل ، لا من خوف. زجرته في شيء من اللين ، وقلت :

يا عمر، أتجادل في أمر الله؟

فما كان منه إلا أن خفض رأسه ، وقال سريعًا، كأنما يستدرك على نفسه:

أستغفر الله، إن الله على كل شيء قدير، وإذا أراد شيئًا أنفذه.

+

وهنا ، ظننتِ ، كما ظنّ كثيرون ، أن عمر كان يحسبها بحساب العدد والعدّة ، وأن أبا بكر كان يحسبها بحساب الإيمان.

سألت ، وفي صوتك فضول الباحث عن الحقيقة:

ترى، هل أصبتُ الحقيقة بقولي هذا؟

فقلت لك ، وأنا أستعيد عمر في هيبته وصدقه:

—لا والله. ما كان عمر أقلّ إيمانًا مني ، ولا كنتُ أزكّي نفسي بهذا القول.

ثم أضفت، وكأنني أرفع ستارًا عن سرٍّ نفسي عميق:

كل ما في الأمر أن عمر كان أعلم بما في قلوب مشركي مكة من أحقاد ، وبما تختزنه صدورهم من ثارات. كان يخشى أن نكون وقعةً كوقعة الخندق ، وأن لا يراعوا في المسلمين إلًّا ولا ذمّة ، إذا رأونا قادمين حاجّين ، نسوق الهدي أمامنا ، وليس معنا إلا السيوف في القُرُب.

كان عمر يرى التاريخ لا كما يُكتب ، بل كما يُعاد . يرى الدم إذا أُطلق ، لا يعود إلى العروق ، ويرى الحقد إذا استيقظ ، لا ينام.

لهذا ، وما إن بدأنا المسير ، حتى ازداد خوفه مما يمكن أن يحدث.

لم يكتمه ، ولم يدسه في صدره ، بل حمله - كما يحمل الصادق همّه - إلى رسول الله ﷺ.

دخل عليه، وقال بصوتٍ تختلط فيه النصيحة بالقلق:

يا رسول الله، تخرج إلى قومٍ غزونا في عقر دارنا ، وجمعوا لنا ، وألبّوا علينا القبائل ، وليس معنا رماح ولا دروع؟

كان السؤال صريحًا ، لا اعتراض فيه ، ولا شكّ ، بل مسؤولية رجل يعرف ثمن الخطأ.

سألتِني، وقد شدّك المشهد:

فبمَ أجاب رسول الله ﷺ؟

ابتسمتُ، لأن في الجواب سرّ التاريخ ، وقلت:

أجابه بابتسامة هادئة حانية . لم يقل شيئًا.

ثم أردفت ، وأنا أزن المعنى بميزان الحكمة:

ترك الردّ على ما في صدر عمر لصاحب الأمر كلّه، لله جلّ وعلا.

وهنا، نزل القول الفصل ، لا من فم بشر، بل من سماء لا تخطئ موعدها:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ۖ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾

صدق الله العظيم.

+

تلك، ، كانت بداية الفتح، فتحٌ لم يبدأ بالسيوف ، بل بالرؤيا ، ولم يُكتب بالدم ، بل بالوعد ، ولم يولد من كثرة العدد ، بل من صدق الاعتماد.

هناك ، في أعماق عمر، انكسر صراعٌ داخليٌّ عظيم. سكت الحساب ، وتكلّم الإيمان . لم يلغِ العقل ، لكنه وضعه في مكانه الصحيح: خادمًا للوحي ، لا حاكمًا عليه.

وهكذا ، حين دخل المسلمون مكة ، لم يدخلوا فاتحين بالمعنى الضيّق ، بل محرّرين للإنسان من خوفه ، وللتاريخ من دورته الدموية.

دخلوا آمنين ، كما قيل لهم ، وحُلِقت الرؤوس ، وقُصّرت ، وسقطت الأصنام ، لا بقوة الضرب ، بل بضعف الباطل أمام الحق.

وما كان عمر بعدها إلا كما كان قبلها:

إيمانٌ لا يتزعزع ، وعقلٌ لا يغفل ، وقلبٌ إذا نزل الأمر ، قال :**سمعنا وأطعنا.**

وهكذا ، إذا أردتِ أن تفهم التاريخ ، فلا تقرئه من ظاهره فقط ، بل اغوص في عقول رجاله ، وفي صراعاتهم النفسية ، ففيها يولد الفتح، قبل أن يولد في الأرض.

شهادة ابن عمر من عسفان إلى الحديبية

أنا عبدُ اللهِ بنُ عمرَ بنِ الخطّاب ، أكتب لا بمداد الحبر ، بل بمداد الذاكرة ، ولا أروي خبراً جامداً ، بل أستخرج روحاً كانت تسكن تلك اللحظات ، لحظاتٍ لو نطقتِ الرمالُ لشهدت ، ولو تنفّس الزمانُ لاعترف أن التاريخ لا يُصنع دائماً بحدّ السيوف ، بل أحياناً بصبر الأنبياء ، وبصيرة القلوب.

كنتُ يومها غلاماً ، لم يكتمل في الخامسة عشرة ، غير أني كنت أحمل في صدري قلباً يشيخ قبل الأوان ، عيناي تلتقطان ما لا تقوله الأفواه ،وأذناي تحفظان ما يمرّ بين الكلمات.

خرجتُ مع رسول الله ﷺ ، خرجنا لا كجندٍ زاحف ، بل كحجيجٍ خاشع ، لبسنا ثياب الإحرام ، وخلعنا ثياب الحرب ، وسقنا الهدي أمامنا ، كأننا نسوق نوايانا عاريةً إلى الله.

كان الطريق بين الجُحفة ومكة ممتداً كخيط قلق ، والصحراء صامتة صمتَ المتربّص ، حتى بلغنا عسفان،

وهناك ، انشقّ الأفق عن رجلٍ يعرف الطريق بين القلوب قبل الدروب : بديل بن ورقة الخزاعي.

أقبل ، لا يلتفت يميناً ولا شمالاً ، كأنما كان يحمل في صدره خبراً لا يحتمل الضياع ، حتى وقف عند رسول الله ﷺ ، وقال بصوتٍ مشدودٍ بين الخوف واليقين:

يا رسول الله،

هنا، اهتزّ أبي ، عمر بن الخطاب ، كأن الصاعقة نزلت في صدره لا في السماء ، وقال مندهشاً ، وفي صوته حدّةُ الصدق:

ماذا ؟! تقول : يا رسول الله ؟ كما نقول نحن ؟

فضحك بديل ، ضحكةً لا استهزاء فيها ، بل كشفاً لحجابٍ طال ستره ، وقال:

وأيّ عجبٍ في هذا يا ابن الخطاب ؟ كنتُ مشركاً على دين قريش ، فشرح الله صدري للإسلام ، وأسلم معي أكثر من مائة من قومي من خزاعة ، وكتمنا إسلامنا كما نصحتنا. نقيم جنوب مكة ، ولو علمت قريش بإسلامنا لظنّتنا عيوناً عليكم ، فآثرنا الكتمان ، والكتمان أحياناً عبادة .

كنتُ أراقب وجه أبي ، أرى فيه دهشةً تتصارع مع الإعجاب ، وأدرك – وأنا الغلام– أن التاريخ لا يُكتب فقط بالظاهر ، بل بما خفي وطُوي ، وكم من مؤمنٍ كان ظله أكبر من جسده.

سأل رسول الله ﷺ ، بصوته الذي إذا سكن ، سكنت القلوب :

فما الذي جاء بك يا بديل ؟

قال:

جئتُك بخبرٍ ثقيلٍ كالجبل ، قريش قد استعدّت لك ، وخرجت لحربك حين علمت بمسيرك .

سكتَ المكان ،حتى خُيّل إليّ أن أنفاس الإبل توقّفت .

سأل النبي ﷺ :

وكيف علموا ؟

قال بديل :

أرسل إليهم بعض منافقي المدينة ، فجُمعت قريش في جلود النمور والدروع ، كنتُ في دار أبي سفيان بن حرب ، حين جاءهم رسول عبد الله بن أبيّ بن سلول، يخبرهم بخروجكم ، ويذكّرهم أنكم خرجتم بغير سلاح .

هنا انفجر أبي كبركان صدق :

قاتل الله ابن سلول !

لكن بديل لم يتوقف ، كأنما كان الزمن يدفعه دفعاً :

ظلّ يحرّضهم ، حتى تعاهدوا ألا تدخلوا مكة أبداً ، وخرجوا ليصدّوكم عن البيت الحرام .

سأله النبي ﷺ :

وأين هم الآن ؟

قال:

نزلوا بذي طوى ، وقدموا الخيل إلى كُراع الغميم ، وليس بينهم وبينكم إلا تسعة فراسخ.

قال ﷺ :

ومن على الخيل ؟

قال بديل ، وكأنه يضع اسماً على حدّ السيف :

خالد بن الوليد، ولا يُنكر بأسه .

ثم قال:

وسلاحهم كل ما لديهم ، وما استعاروه من يهود خيبر:

السيوف ، الرماح ، الدروع.

هنا رأيت أبي ، عمر الذي كان يرى الحقّ سيفاً لا يُغمَد ، يتقدّم بإلحاحٍ يشبه الدعاء ،

وقال : يا رسول الله ، هم في السلاح ، ونحن لم نخرج إلا بالسيوف في القُرب ، ولا تصلح هذه وحدها للحرب .

فمُر رجلاً منا يعود إلى يثرب ، يجمع السلاح ، ويستنفر من بقي من المسلمين ، فإذا حاربنا ، حاربنا وافرين.

كنتُ أنظر إلى رسول الله ﷺ ، أحاول أن أقرأ ما وراء سكونه ، كنتُ أتعلم – دون أن يعلّمني أحد أن القيادة ليست صخباً ، وأن الحكمة ليست استعجالاً.

في داخلي، كان صراعٌ صامت : غلامٌ يرى السيوف أمامه ، ويرى أباه يريد الحرب ، ويرى نبيّه يريد السلام ، فأدركت أن أعظم المعارك تدور أولاً داخل النفوس.

لم يجب النبي ﷺ فوراً ، وكأن الزمن توقّف احتراماً لصمته ، ثم مضى القرار يتشكّل ، لا كالسهم ، بل كالنور.

ومن عسفان ،

بدأ فصلٌ جديد ، لم يكن عنوانه حرب ، بل صلح ، ولم يكن بطله السيف ، بل الحلم.

واليوم ، وقد شاب الرأس ، أشهد – وأنا المؤرخ والشاهد – أن ما ظننّاه يومها ضعفاً ، كان عين القوّة ، وأن من يغوص في التاريخ ، لا يبحث فقط عمّا حدث ، بل لماذا اختار الله له أن يحدث هكذا.

تلك شهادتي ،شهادة غلامٍ رأى بعينيه : كيف ينتصر النبي حين يضع السيف جانباً ، ويترك للتاريخ أن يتعلّم معنى النصر الحقيقي.

على ثنيةِ المرار
حين كان الحزنُ نبيًّا، والحِلمُ سياسة، والتاريخُ يُعادُ كتابته

كان المساءُ ينسدلُ على الرمالِ كستارٍ حزين ، والريحُ تمرُّ على وجوهِ الصحابةِ كأنها تسألهم : أحقًّا جئتم بلا سلاحٍ إلا سلاحِ القلوب؟

هناك ، عند تخومِ الحديبية ، لم يكن الصمتُ صمتَ سكون ، بل صمتَ انتظارٍ ثقيل ، تتكسّر فيه الأفكارُ على صخورِ الواقع ، وتتنازعُ الأرواحُ بين رجاءِ البيتِ العتيق ، وخشيةِ سيوفِ قريش.

واستطردَ سيدُنا عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما ، وقد غاص بصرُه في الأفق كأنما يستخرجُ من الرملِ ذاكرةً حيّة ، وقال بصوتٍ امتزج فيه التاريخُ بالحسرة:

أحزنَ رسولَ الله ﷺ ما سمع من بديل ، فها هو يريدُ أن يدخلَ بالمسلمين مكةَ حاجًّا ، معظِّمًا البيتَ الحرام ، ذاك البيتَ الذي لا يُصَدُّ عنه حاجٌّ إلا ظالم ، فلا تدعه قريش وما يريد ، وتدفعه دفعًا إلى الحرب ، في حقٍّ لكلِّ عربيّ ، هو في حقيقته السببُ الأول لوجودِ قريش نفسها.

ثم سكت قليلًا ، كأن الكلمات أثقلُ من أن تُقال دفعةً واحدة .كان الحزنُ يومئذٍ ليس انكسارًا ، بل حكمةً موجوعة ؛وكان الألمُ ليس ضعفًا، بل بوصلةً أخلاقيةً ترشد المسير.

+

حزينًا ، أرسل رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بنَ رواحة الأنصاري إلى المدينة ، ليأتي بالسلاح ، لا رغبةً في القتال ، بل استعدادًا لقدرٍ قد يُفرَض.

وقال ﷺ، وفي صوته الشريف رنّةُ الأسى ، أسى القائدِ الذي يرى الحربَ تأكلُ أبناءَها ، ولا يزال يبحثُ عن نافذةِ رحمة:

يا ويحَ قريش ، لقد أكلتهم الحرب ،

ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب ؟ فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا،

وإن أظهرني الله دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوّة

يا لها من كلمات ! ليست خطابَ ضعف ، بل منطقَ نبيٍّ يرى التاريخَ من علٍ ، ويرى الدمَ قبل أن يُسفك ، ويرى الخسارةَ قبل أن تُحسب.

+

وفي لحظةِ حنانٍ إنسانيٍّ مثير ، قال الراوي لسيدنا عبد الله بن عمر، وقد بدا عليه التأثّر:

كان رسولُ الله ﷺ ، حتى وهو في هذا الموقف ، شديدَ العطف على قريش

ابتسم ابنُ عمر ابتسامةَ العارف بطبائع النفوس ،وقال، وقد مزج العقلَ بالعاطفة:

وهل يأملُ أحدٌ لأهله وقومه إلا الخير ؟

كان رسولُ الله ﷺ رجلًا من قريش ، فكيف لا يعطف على القرشيين ، ويرجو أن يكون حظُّهم من الرفعة وعلوّ الشأن في ظلّ الإسلام ، أكبرَ من حظوظِ سواهم من الناس ؟

ثم أردف، وقد علت نبرته قليلًا ، كمن يريد أن يقطع الطريق على سوء الفهم:

ومع هذا ، فإن رسولَ الله ﷺ حين أسلم قومُه وعشيرته ، وصارت مكةُ كلُّها إسلامًا ، سوى بينهم في الحقوق والواجبات وبين سواهم من المسلمين. لا فضلَ لقرشيٍّ على أنصاريٍّ إلا بما يحملُه القلبُ من تقوى.

+

غير أن النفوس ، مهما سمت ، تبقى بشرًا ، وفي لحظةٍ من الهمسِ القَلِق ، تساءل بعضُ الأنصار:

لقى رسولُ الله ﷺ - والله - قومَه .

كان الهمسُ خافتًا ، لكن صداهُ كان عميقًا . لم يكن سوءَ ظنٍّ بالنبيّ ، بل خوفَ فراق .

فسأل الراوي، وقد التقطت الخيطَ النفسيَّ للحظة:

وماذا يعنون بذلك التهامس ؟

أجاب عبدُ الله بن عمر، وقد بدا عليه التفهّم:

خشوا أن يبقى رسولُ الله ﷺ في مكة ، وأن يتخذَ مسقطَ رأسه عاصمةَ الدولة الإسلامية الجديدة . نسوا - أو تناسوا - أن رسولَ الله ﷺ ليس ابنَ أرضٍ واحدة ، بل رسولُ الله إلى الناس كافة ، لا فرقَ عنده بين قومه وسواهم.

ثم صمت ، كأن الصمتَ هنا أبلغُ من الكلام ، قبل أن يضيف:

وأبى عليه السلام أن يبقى في مكة ، وعاد إلى يثرب ، يفي للأنصار بما عاهدهم عليه في بيعة العقبة ، وقال قولته التي سرت في آفاق الوفاء كما تسري الروحُ في الجسد:

المحيا محياكم، والممات مماتكم.

آهٍ من هذه الكلمات !كم دولةٍ سقطت لأنها افتقدت مثل هذا الوفاء ؟ وكم قائدٍ خسر التاريخ لأنه لم يفهم أن القيادةَ عهد ، لا غنيمة ؟

+

قطع الراوي حبلَ الذكريات بسؤالٍ جديد:

وتبعتم المسيرة نحو مكة ، قبل أن يأتيكم الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة بالسلاح من يثرب ؟

قال عبد الله بن عمر ، وقد عاد إلى نبرة القائد الميداني:

أراد رسولُ الله ﷺ أن يتقيَ القتالَ ما استطاع ، مع بقاء الهدف لا يتغيّر .لهذا أمرنا أن نتخذَ طريقًا غير تلك التي يحرسها خالدُ بن الوليد بخيلِ قريش . وترك ثلاثةً من المسلمين في انتظارِ المدد والسلاح.

كان ذلك قرارًا استراتيجيًّا ،لكن خلفه عقلٌ أخلاقيّ ، يرى أن تجنّب الدم نصرٌ لا يقلّ عن فتحِ المدن.

+

وإلى ما حملكم ذلك الطريق الجديد؟

سألت الراوي ، وقد بدا عليه شغفُ المؤرخ.

أجاب عبد الله بن عمر ، وقد أشار بيده كأنه يرسم خريطةً على الهواء:

إلى ثنيةِ المرار ، وهي بقعةٌ على مسافةٍ قليلةٍ من الحديبية ، ثلاثة أميالٍ ولا أكثر . وعسكرنا هناك .

وهناك ، عند ثنية المرار ، لم تُنصب فقط خيامُ الجيش ، بل نُصبت خيامُ المعنى.

هناك ، كان النبي ﷺ يغوص في أعماق نفسه ، بين نداء الرسالة ،ونداء الرحمة ، ونداء التاريخ الذي ينتظر توقيعه.

كان يعلم أن قريشًا لا ترى الأمور بعين الحكمة ، وأن الكِبرَ إذا لبسَ ثوبَ السياسة ، أعمى البصيرة.

ومع ذلك ، لم يكفّ عن الأمل ، لأن الأملَ عند الأنبياء عبادة.

+

هكذا كانت الحديبية ، ليست مجرّد صلح ، بل مدرسةً في الفلسفة السياسية ، وعلم النفس الاجتماعي ، وأدب القيادة.

هكذا كان سيدنا محمد ﷺ ، نبيًّا يحمل في قلبه حزنَ الإنسان ، وفي عقله حكمةَ التاريخ ، وفي سلوكه ثورةً أخلاقية غيّرت مجرى العالم ، لا بالسيف أولًا ، بل بالمعنى.

الحديبية، حين نطق التاريخ وشهدت القلوب

في البدء ، قبل أن تُسفِرَ الأيام عن ملامحها ، وقبل أن يفيق العقل الإنساني من غيبوبته المزمنة بين الشك واليقين ، وقف أعداء الإسلام على أعتاب المعجزة ، يتلمسون منافذ الطعن ، ويُديرون سهام الإنكار ، لا طلبًا للحقيقة ، بل هربًا منها.

وما أكثر ما قالوا ، وما أشد ما افتروا ، في معجزات سيد الخلق محمد ﷺ ؛ ذاك الذي ضاق به الزمان ، فعجز عن احتوائه ، فأنزل الله عليه كلامًا يتحدى الزمان والمكان : **القرآن الكريم**.

فلما أعيتهم الحيلة أمام المعجزة الكبرى ، التي لا تبلى جدتها ولا تنقضي عجائبها ، لجؤوا إلى ما سواها ، يكذبونها تارة باسم العلم ، وتارة باسم العقل ، وتارة بما أسموه زورًا وبهتانًا دليل الحدوث ، وكأن عقولهم لا تتحرك إلا إذا قُيِّدت ، ولا تُبصر إلا إذا أُغمضت عن عمد.

+

حوار العقل والهوى

وفي دهاليز الفكر الغربي ، وُلدت شخصيات ماكرة ، لبست لبوس البحث ، وتوشحت برداء الفلسفة ، وهي في حقيقتها لا تعدو أن تكون صدىً للخوف من نور الحق . كان **مرجليون** – أخبثهم مكرًا وأدقهم كفرًا – قد سلك طريقًا ملتويًا ، فأنكر معجزات الأنبياء جميعًا ، لا لشيء ، إلا ليصل إلى غايته الكبرى : إنكار معجزات محمد ﷺ. قال في سره ، وهو يخط عباراته الباردة :

إذا سقطت معجزات السابقين ، سقطت معجزة الخاتم ، وسقط معه سلطان السماء على الأرض .

وهكذا، لم يكن إنكاره وليد بحث ، بل ثمرة حقد قديم، وحسابٍ مع النبوة لم يُحسم.

أما **هانوتو** ، فكان قصة أخرى ، مأساة عقل قبل أن تكون جريمة فكر . رجلٌ اختلط عليه الدين بالغيرة ، والعقيدة بالجرح الشخصي . جنَّ جنونه حين أسلمت ابنته ، ثم زُفَّت إلى رجل مسلم ، فاشتعل في داخله حريق لم تطفئه كتب ولا مقالات .

جلس ذات ليلة ، والقلم يرتجف بين أصابعه ، وقال مخاطبًا نفسه :

إن لم أستطع هدم الإسلام من أصوله ، فلأهدم صورته في قلوب أهله.

فابتكر إثما جديدًا في تاريخ الافتراء : اخترع معجزات لم تقع ، ولم يذكرها كتاب من كتب السيرة ، ثم صاغها في قالب خرافي ، بالغ في غرابته ، وأوغَل في خياله المريض ، ليُسهل عليه نقضها ، ثم ليجر المسلمين – من حيث لا يشعرون – إلى تكذيبها ، فيختلط الصادق بالمخترع ، ويضيع الحق بين ركام الزيف.

+

صراع الصمت والكلام

وكم هممنا ، نحن ، أن نناقش هذه الترهات ، وأن نفكك هذه الأباطيل ، غير أن العقل الرشيد قد يتراجع حين يرى أن الكلام قد يكون خادمًا لمكر الخصم .

تساءلنا في حوار داخلي طويل :

أَنُجادِل الوهم ، فنمنحه شرعية النقاش ؟ أم نصمت ، فنحرمه شرف الرد ؟ فاخترنا الصمت ، لا عجزًا ، بل حكمة ؛ كما عدل عن ذلك يومًا شيخنا الجليل الإمام محمد عبده ، إذ أدرك أن بعض المعارك لا تُكسب بالسيوف ، بل بتجاهل ساحاتها.

+

الحديبية، حين تكلمت الأرض

وهنا ، تتقدم **الحديبية** ، لا بوصفها حادثة تاريخية عابرة ، بل باعتبارها مسرحًا كونيًا ، اجتمع فيه الغيب والشهادة ، وتصافحت فيه السماء مع الأرض .

يوم الحديبية لم يكن يومًا عاديًا ، بل كان عقدًا وجوديًا بين النبوة والتاريخ. معجزاته لم تُروَ همسًا ، بل شهدها الصحابة جميعًا ، رأوها رأي العين ، ووعوها وعي القلب ، ثم نقلوها لمن بعدهم بصدق لا يعرف التزييف.

كان محمد ﷺ هناك ، ليس فقط قائدًا أو نبيًا ، بل إنسانًا تتصارع في داخله مشاعر البشر : حزن على صدّ البيت ، وحرص على الدماء ، وثقة مطلقة بوعد الله .

وفي أعماقه ، دار حوار صامت :

يا رب، إنهم لا يعلمون، وإن وعدك حق ، ولو تأخر.

+

أصوات الشهود

روى **أبو بكر الصديق** ، فكان صوته ميزانًا بين الغضب والحكمة .

وتحدث **عبد الله بن عمر** ، التقي النقي ، فكانت كلماته كأنها قطرات نور ، تسيل من قلبٍ لم يعرف إلا الصدق.

واليوم ، تكتمل الدائرة مع بقية الرفاق الأبرار ، أولئك الذين لم يكونوا مجرد رواة للتاريخ ، بل صُنّاعه ، وأبطاله ، وشهوده العدول.

وهنا تتجلى خصوصية التاريخ الإسلامي ؛ تاريخ لا يرويه البلاط، ولا تكتبه الأقلام المأجورة ، بل يسطره الذين عاشوه ، ودفنوا بعضه في أجسادهم ، وبعضه في دموعهم ، وبعضه في قبورهم.

+

الفلسفة خلف الحدث

ليست معجزات الحديبية خوارق تُعرض لإبهار العيون فحسب ، بل إشارات فلسفية عميقة:

أن القوة ليست في الغلبة ، بل في ضبط النفس . وأن النصر قد يأتي في صورة تنازل ، وأن الإيمان الحقيقي هو أن ترى الفتح في طيّ الهزيمة.

وهكذا ، حين نعود إلى الحديبية ، لا نعود إليها لنرد على مرجليون أو هانوتو ، بل لننقذ أنفسنا من الشك ، ولنذكر أن هذا الدين لم يُبنَ على خرافة ، بل على تاريخ حيّ ، شهدته عيون ، وحملته قلوب، ودونه دم.

+

الحديبية ليست قبرًا في الصحراء ، بل مرآة للعقل ، واختبارًا للإيمان ، وشهادة على أن المعجزة الحقيقية ليست فقط في انشقاق القمر ، بل في ثبات القلب حين تموج الفتن.

وهنا، بين أجداث الحديبية ، يقف التاريخ ، لا ليُدافع عن نفسه ، بل ليقول بهدوء الواثق:

كنتُ هنا، ورأيتُ، وشهدتُ.

ثَنِيَّةُ المَرار، حين تكلّم الماءُ واصطخبتِ القلوب

لم يكن الطريق إلى مكة يومئذٍ طريق حجٍّ فحسب ، بل كان ممشى للقدر، تتناوب عليه أقدام البشر وخطى التاريخ ، وتتعانق فوق رمَاله رهبةُ السيوف مع رجاء القلوب.

هكذا بدأ عبدُ الله بنُ عمر حديثه ، وكأن صوته ينسلّ من بين طبقات الزمن ، يوقظ ذاكرة الصحراء ، ويستخرج من صدرها سرًّا ظلّ مغمورًا بالرمل حتى آن أوانُ البوح.

قال:

يا بَنيّ ، ما إن بلغنا ثنيّةَ المرار ، ونحن نسلك الطريق المؤدي إلى مكة ، حتى شعرنا أنّ الأرض تضيق بنا اتساعًا . لم تكن الثنية يومها مجرد منعطفٍ بين جبلين ، بل كانت مفترقَ مصيرٍ بين سلمٍ وحرب ، وبين يقينٍ وشك. هناك ، حيث وقف خالد بن الوليد – وكان يومئذٍ على شركه – في شمال أمّ القرى ، يقطع علينا السبيل ، ويمنعنا من دخول مكة حُجّاجًا ومعتمرين ، هناك توقّفت القوافل ، وسكنت الأقدام ، وارتفعت الأسئلة في الصدور .

كان عبد الله يتحدث ، وعيناه كأنهما تُبصران ما وراء الجالسين ، كأن الصحراء ما زالت أمامه ، والخيام شاخصة ، والقلق يتنقّل بين الوجوه . قال :

كنّا ألفًا وأربعمائة رجل ، خرجنا لا نحمل إلا نية العمرة ، وسيوفنا في أغمادها ، وقلوبنا معلّقة بالبيت العتيق . غير أن الطريق ، يا بَنيّ ، لا يفتح ذراعيه دائمًا للمشتاقين ، فقد يختبرهم قبل أن يسمح لهم بالوصول .

وفي ذلك السكون المشوب بالتوتر ، تقدّم شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين ، حديث عهدٍ بالإسلام ، يحمل في ملامحه حدّة التجربة وقلق الداخلين الجدد إلى عالم الإيمان . كان المغيرة بن شعبة . قال عبد الله:

رأيتُه يخطو نحو رسول الله ﷺ ، وخطوته تجمع بين الجرأة والحذر. انحنى قليلًا ، ثم قال بصوتٍ يسمعه القريب والبعيد :

يا رسول الله، ليس في هذا الوادي ماء ، فكيف ننزل به ؟ إن أقمنا حتى يأتينا المدد والسلاح الذي أُرسل في طلبه إلى يثرب ، نفد ما معنا من ماء ، وهلكت الإبل والشياه. فدعنا نرجع أدراجنا إلى الجُحفة .

هنا تغيّر الهواء . لم يكن اقتراح الرجوع أمرًا هيّنًا ، فالرجوع في عرف العرب كسرٌ للهيبة ، وتراجعٌ أمام الخصم . وما إن فرغ المغيرة من كلامه حتى ثار عمر بن الخطاب ، وكان كالسيف إذا سُلّ ، لا يعرف المواربة .

قال عبد الله ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة ممزوجة بالرهبة :

سمعتُ أبي يقول ، وصوته كالرعد :

ما هذا الذي تقول يا ابن شعبة ؟ أتراجع رسولَ الله ؟ نعود وقد أمرنا أن نبقى ؟ .

لم يكن المغيرة أقل حدّة. كان في صوته شيء من كبرياء قريش القديم ، وشيء من خوف المؤمن الجديد على الجماعة . ردّ بعينين تلمعان :

لا تشتدّ بي يا ابن الخطاب . فوالله إن رسول الله يعلم أني ما قلتُ ذلك جبنًا ، ولكنني أخشى على هذا الجمع من الضياع في هذا البقيع.

وتعلّقت الأبصار برسول الله ﷺ. كان الصمت الذي يسبق الفصل. لا كلمة تُقال، ولا إشارة تُفهم. سكونٌ أثقل من الكلام . ثم مدّ النبي يده ، وأخرج سهمًا من كنانته ، وناوله للمغيرة ، وقال له بهدوءٍ يزلزل الجبال:

اغرزْه هنا.

قال عبد الله :

رأيتُ المغيرة ينحني ، ويغرس السهم في جوف الأرض عند موطئ قدميه. بدأ الحفر ، والسهم يختفي شيئًا فشيئًا ، حتى عمّق الحفرة، وفجأة ، يا بَنيّ ، جاشت الأرض ، وانبثق الماء ، لا يُحبس ، ولا يُرد .

كان المشهد أقرب إلى نشيدٍ كونيّ . الماء يتفجّر من صخرٍ صمّ ، كأن الأرض كانت تكتم عطشها منذ دهور ، فلما مرّ عليها السهم ، أذنت لنفسها بالبكاء. شرب الناس ، وارتوت الإبل ، وبركت النوق تتمرّغ في العطن راضية ، وقد امتلأت كروشها ، وعاد للحياة صوتها بعد صمت.

وصاح عمر في الناس ، بأمر رسول الله ﷺ:

يا معشر المسلمين ، انزلوا ها هنا ، وكونوا على حذر من هجمةٍ مباغتة قد يشنّها خالد بن الوليد في فرسانه.

قال عبد الله :

كانت معجزة ، لا يختلف عليها اثنان. معجزة شهدها ألفٌ وأربعمائة مسلم ، لكنها لم تبقَ حبيسة معسكرنا ، بل عبرت الرمال إلى قريش ، وتردّدت في مجالسها .

ثم سكت عبد الله قليلًا ، كأنما يهيئ السامعين لما سيقول ، وأضاف بصوتٍ خافت:

حدّثني أبو سفيان بن حرب بعد إسلامه، .

وكأن أبا سفيان نفسه حضر المجلس ، بصراعه القديم ، وكبريائه المكسور. قال أبو سفيان ، كما نقل عبد الله:

كنتُ إذا حدّثني المسلمون عن معجزات محمد ، أسرعتُ إلى تكذيبها ، واتّهامه بالسحر والكهانة. فلما حدّثوني عن ماءٍ انبثق في ثنية المرار ، سخرتُ منهم. فأخذوني إلى موضع الحفرة ، فرأيتُ بئرةً تفور بالماء. فقلتُ ساخرًا : وما هذا ؟ بئرٌ تفجّرت كما تفجّرت زمزم. لا معجزة هنا .

ثم خفَتَ صوت أبي سفيان ، وكأن الندم كان يتسلّل إلى كلماته:

ويحك يا أبا سفيان ! لقد أغضبتَ ربّ العالمين بما قلت. فما هي إلا أيام حتى حُبس الماء عنا .

قال عبد الله:

كان أبو سفيان يقول: والله ما حزنتُ على شيءٍ كحزني على ذلك الخبر الذي ضيّعته على قريش. رأيتُ المعجزة رأي العين ، وكنتُ يومها مشركًا ، أتذبذب بين الإيمان الذي يطرق القلب طرقًا ، وبين موروث الشرك الذي يشدّني إلى الخلف. فلما منّ الله عليّ بالإسلام بعد فتح مكة ، صرتُ أستعيد ذلك الموقف ، ويعود حزني على ماء ثنية المرار ، كأن العطش كان في قلبي لا في الحلق.«

سأله أحد الجالسين:

وإلى متى أقمتم في ثنية المرار ؟

ابتسم عبد الله، وقال :

ثلاثة أيام لا غير . ثم وافانا عبد الله بن رواحة بالسلاح ، وبمن استنفر من المسلمين. سرنا بعدها حتى نزلنا سهل الحديبية . وكان بديل بن ورقاء الخزاعي قد سبقنا إلى مكة ، يحاول أن يقنع أبا سفيان بالسماح لنا بأداء العمرة .

وسكت عبد الله. غير أن الصمت لم يكن فراغًا ، بل كان امتلاءً بالمعاني. لقد فهم الحاضرون أن ثنية المرار لم تكن محطة ماء فقط ، بل كانت مرآةً للنفوس: فيها تكسّرت حدّةُ الغضب ، وذابت خشونة الشك ، وتجلّى الفرق بين عقلٍ يحسب النجاة حسابًا ، وقلبٍ يتوكّل على وعد السماء.

وهكذا ، بقي الماء شاهدًا ، وبقي السهم شاهدًا ، وبقيت القصة، تُروى ، لا لتُدهش السامعين ، بل لتعلّمهم أن التاريخ لا يصنعه السيف وحده ، بل تصنعه لحظة يقين ، حين يضرب الإيمانُ الأرضَ، فتفور الحياة.

بين سيف الهيبة وميزان الحكمة:
همس الحديبية في عقل قريش

كانت الريح في تلك الليلة تمشط رمال الحديبية مشطَ ذاكرةٍ قديمة ، تثير الغبار كما تُثير الأسئلة في الصدور. والنجوم فوق مكة متحفظة ، كأنها شهودٌ يترددون قبل الإدلاء

بشهادتهم. هناك ، عند تخوم القرار ، وقف أبو سفيان بن حرب ؛ صدرُه مملوءٌ بقلقٍ لا يُقال ، وعيناه معلقتان على طريقٍ يجيء منه محمد، أو لا يجيء.

قالت بديل بن ورقاء الخزاعي ، بصوتٍ هادئٍ كنسمةٍ تُداوي لا تُجرِح:

يا أبا سفيان، أراك تُعجِل على محمد، فإن محمدًا لم يأتِ لقتال.

التفت أبو سفيان فجأة ، كأن السهم أصاب ظنه لا جسده ، وقال بسخريةٍ تُخفي خوفًا:

لم يأتِ لقتال ؟ أيُّ حديثٍ هذا يا بديل ؟

ثم استرسل ، والوقائع تتزاحم على لسانه تزاحمَ الخيل في الميدان:

لقد جمع المسلمين عند الجُحفة ، فلما شعروا بخيل خالد بن الوليد مالوا إلى ثنيّة المرار قرب الحديبية. أيصنع هذا من جاء معتمرًا ؟ محمد - يا بديل - جاء للقتال.

هزّ بديل رأسه ، وفي عينيه يقينٌ لا يطلب برهانًا:

والله ما جاء محمد محاربًا.

ومن يدريك؟

قالها أبو سفيان ، وفي صدره صراعٌ بين ما يرى وما يخشى أن يراه.

ذهبتُ مع رجالٍ من خزاعة ، وقابلتُه. إنما جاء زائرًا لهذا البيت.

تضايق أبو سفيان ، فبان الضيق على ملامحه كما يبان الشق في الصخر ، وقال بحدّةٍ مُواربة:

كأنكم - معشر خزاعة - تذكرون حلفكم القديم مع عبد المطلب ، جدِّ محمد.

ابتسم بديل ابتسامةَ من يعرف التاريخ ولا يتخذه ذريعة ، وقال:

لا شأن بحلفٍ قديمٍ بما نحن فيه الآن . ولكننا نكره أن تقول العرب: صدّت قريش الحُجّاج والمعتمرين عن بيت الله. يسوء رأي الناس فيكم ، وتخور الهيبة إن خارت السيرة. وإني - يا أبا سفيان- رأيتُ لكم رأيًا.

وما ذاك ؟ قال أبو سفيان ، وقد شدّه الفضول كما يشدّ الغريقَ خشبُ النجاة.

أذهب إلى محمد ، فآتيكم بواحدٍ من أصحابه - كعمر أو أبي بكر - فيقسم أمامكم أنهم لم يخرجوا من يثرب إلا للحج والعمرة ، ولم يأتوا لقتال.

قهقه أبو سفيان قهقهةً قصيرة ، فيها من الاستهزاء أكثر مما فيها من الطمأنينة ، وقال

ما هذا برأي!

غضب بديل ، فاشتعل صوته اشتعالَ نارٍ في هشيم الكبرياء **والله يا معشر قريش ، لو غدرتم بالمسلمين الذين جاؤوا حاجين معتمرين ، لدالت دولتكم، ولما وقّرتكم العرب بعدها ، ولركبكم العار إلى آخر الزمان.**

أطرق أبو سفيان لحظة ، ثم رفع رأسه ، وقد انتصب فيه صوت الزعامة ، وقال:

ليس العار فيما تقول يا بديل ، العار أن تتحدث العرب عنا ، فيقولون : ذلّت قريش لمحمد. والله لا يدخلها هو وأصحابه علينا عنوةً أبدًا.

وسكت الجمع. وفي سكونهم كان التاريخ يكتب سطرًا بالحبر الخفيّ.

*

وهنا، يتقدم الراوي خطوةً إلى الأمام ، كأنه يفتح نافذةً على عقلٍ آخر وزمنٍ آخر ، ويسأل:

يا سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب ، أكانت كل بطون قريش على رأي رئيسها أبي سفيان ؟

قال عبد الله بن عمر ، وقد سكن صوته سكون من خبر الأيام وعرف تقلبها:

لا. بل كان في سادة قريش من يؤثرون المهادنة ، ويبذلون الجهد لمنع الصدام ، ويسعون لإقناع المسلمين بالعودة إلى يثرب دون حرب . وكان على رأس هؤلاء سهيل بن عمرو ، والحُلَيس سيد الأحابيش.

أما سهيل ، فقد عرفناه محرضًا شديدًا ، وأسلم أبناؤه كلهم وهاجروا ، وبقي في مكة وحيدًا. فما الذي دفعه إلى المهادنة ؟

تنهد ابن عمر ، وكأن الذكرى أثقل من السؤال، وقال:

كان له بين المسلمين القادمين للعمرة ولدان: عبد الله وسهل ، وصهره أبو حذيفة . وكان يخشى أن يقتل أحدهم في صدامٍ لا تُحمد عقباه. فصار يحث أبا سفيان على المهادنة، وبدء المفاوضات.

*

وهنا نعود إلى عقل أبي سفيان ؛ ذلك العقل الذي كان يزن الأمور بميزان القوة ، ويقيس الرجولة بمقياس الغلبة. كان يسمع صوت بديل ، ويرى وجوه السادة ، لكن في داخله حوارٌ آخر، أعمق وأخطر:

إن دخل محمد مكة اليوم ، فما الذي يبقى لقريش ؟ أهي السيادة أم السمعة ؟ أهو الحجر أم البشر؟

ولكن، إن قاتلنا ه، وأهرقنا الدم عند البي ت، فبأي وجهٍ نلقى العرب؟

كان التاريخ يطرق باب عقله طرقًا عنيفًا. تذكّر يوم بدر، ويوم أحد، وتذكّر أن محمدًا، كلما ظنوه ضعف ، اشتد عوده. وتذكّر أن الهيبة لا تُصان بالسيوف وحدها ، بل بالحكمة حين تعزّ السيوف.

وفي الجهة الأخرى ، كان بديل بن ورقاء يفكر تفكيرًا اجتماعيًا عميقًا ؛ يرى القبائل شبكةً من السمعة ، ويرى مكة مركزًا أخلاقيًا قبل أن تكون مركزًا تجاريًا. أما سهيل بن عمرو ، فكان صراعه نفسيًا خالصًا: بين موقفٍ عامٍّ يحفظ وجه قريش ، وقلبٍ خاصٍّ يخاف على فلذات كبده.

وهكذا، التقت الدوافع:

سياسة أبي سفيان ، وحكمة بديل ، وخوف سهيل ، وصبر محمد.

*

لم تكن الحديبية مجرد موضعٍ جغرافي ؛ كانت مفترقًا فلسفيًا بين من يرى القوة في المنع ، ومن يراها في المنح. بين من يحسب النصر بعدد السيوف ، ومن يقيسه بعدد القلوب التي تُفتح بلا دم.

وفي صمت تلك الليالي ، وُلد قرارٌ سيغيّر مجرى التاريخ: صلحٌ ظنه بعضهم هزيمة ، فإذا به فتحٌ مبين ؛ هدنةٌ حسبها قومٌ ضعفًا ، فإذا بها بداية انهيار الأصنام في العقول قبل أن تنهار في الحجر.

وهكذا ، خرجت قريش من الحديبية وهي لا تعلم أنها وقّعت على بداية أفولها، وخرج محمد ﷺ وهو يعلم أن الصبر حين يحسن موضعه، يكون أمضى من السيف، وأبقى من النصر العاجل.

فما بين ثنيّة المرار وخيمة الصلح ، كتب التاريخ درسه الخالد:

أن العظمة ليست في أن تمنع الناس عن البيت ، بل في أن تفتح لهم الطريق إلى الحق.

الحُلَيْسُ بين قَداسةِ البيتِ ومكرِ السياسة
(حوار في مفترق التاريخ والضمير)

في تلك الأيام التي كانت الرمال فيها تحفظ الأسرار أكثر مما تفعل الصدور، وتتنفّس الجبالُ أخبار الرجال ، وقف التاريخ على حافة سؤالٍ أخلاقيٍّ عظيم:

هل تُقاس السياسةُ بالقوة أم بالحق ؟ وهل يُمكن للإنسان ، حين يلامس المقدّس ، أن يظلّ أسير التحالفات والمصالح ؟

في تلك اللحظة المفصلية، خرج اسم **الحُلَيْس بن علقمة** من ظلال التحالفات إلى ضوء الامتحان ، فصار الرجلُ أكثر من سيدٍ للأحابيش ؛ صار مرآةً للضمير العربي في صراعه بين الهيبة القديمة والصدق الفطري.

+

من هم الأحابيش؟ سؤال الابنة، وجواب التاريخ

فمن هو الحليس سيد من أسميتهم بالأحابيش ؟ أَهُم من أهل الحبشة ؟

ابتسم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ابتسامة من يعرف ثِقل السؤال ، لا بساطته ، وقال بصوتٍ هادئٍ يشبه نبرة المعلّم حين يرفع الحجاب عن لبسٍ شائع:

كلا ، بل هم عربٌ خلّص، من بني الهون ، وبني الحارث، وبني المصطلق . تحالفوا مع قريش تحت جبل بأسفل مكة يُقال له جبل حبش ، فسمّوا بالأحابيش لذلك.

ثم سكت لحظة ، كأنه يستحضر صورة الجبل ، والتحالف ، والعهود التي تُعقَد بالأيدي ولكنها تُختبر بالقلوب.

وكان هذا الحلف يقضي بأن يكونوا مع قريش يدًا واحدة على من عاداهم. وكان سيدهم في تلك الأيام الحليس بن علقمة، رجلاً تعلّق قلبه بالكعبة قبل أن تتعلّق يده بسيف.

+

السياسة حين تستدعي الدين

كان الحليس يومها في زيارةٍ لأصحابه بمكة، لا يعلم أن القدر يُعدّ له امتحانًا لا يشبه كل ما عرفه من قبل .اقترب منه أبو سفيان، والسياسةُ تسبق كلماته:

يا حليس ، اذهب إلى حيث محمد ، ولا يكن في حديثك معه إلا أن يعود دون قتال.

توقّف الحليس . لم يكن أحمق ، ولم يكن متسرّعًا . سأل السؤال الذي يكشف معدن الرجل:

فإن كان الرجل ، ومن معه ، قد جاءوا معتمرين ؟

ضحك أبو سفيان ضحكة مَن اعتاد إدارة الرجال لا محاورتهم:

عجبًا لك يا حليس ! أتحكم قبل أن تتيقّن ؟

لكن الحليس كان قد بدأ ، دون أن يدري ، رحلته من موقع الحليف إلى موقع الشاهد.

+

نظرة النبي ﷺ ، ومعرفة النفوس

يقول عبد الله بن عمر ، وصوته يهبط إلى نبرة الشهادة :

وجاءنا الحليس سيد الأحابيش ، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلًا نحو وادي الحديبية ، قال:

إن هذا من قومٍ يتألّهون ، ويعظّمون الكعبة ، فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه .

هنا تتجلّى عبقرية النبوة :

لم يخاطب النبي ﷺ الحليس بلغة السياسة ، ولا بمنطق التهديد ، بل بلغة ما يسكنه، لغة التقديس.

وكنتُ أنا، يا أبنائي، ممن أطلقوا الهدي بقلائده نحو الحليس.

رأيتُ الحليس - والكلام لعبد الله - كما لم أَرَ رجلًا من قبل . رأيتُ سيدًا يتحوّل إلى طفلٍ أمام رموز المعنى.

كانت الإبل تسعى ، وقد أكلت أوبارها من طول الحبس ، وكان الحليس يمسح عليها بيدٍ ترتجف ، وعيناه تندى بالدمع ، لا دموع ضعف، بل دموع معرفة.

سمعته يتمتم، كأنه لا يخاطب أحدًا:

سبحان الله، سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدّوا عن البيت.

كان الحوار قد انتقل من الخارج إلى الداخل ، من السياسة إلى الضمير.

اقترب عمر بن الخطاب رضي الله منه ، لا ليخدعه ، بل ليوقظه:

يا سيد الأحابيش ، أتحجّ لخم وجذام وحمير ، ويُمنع رسول الله ﷺ؟

اشتعل الحليس ، لا غضبًا بل غيرةً على المقدّس:

لا والله ! لا يمنع ابن عبد المطلب إلا ظالم ! هلكت قريش ورب الكعبة !

قال عمر ، مشيرًا إلى لبّ القضية :

رسول الله يقول لك : إنما أتينا عُمّارًا يا ابن علقمة.

التفت الحليس إلى النبي ﷺ، وكأن قلبه سبق لسانه:

صدقت يا محمد، صدقت يا ابن عبد المطلب . والله لا يحج من ذكرت ، وتُمنع أنت ومن معك.

ثم سأل عمر السؤال الفاصل:

فهل رأيت قومًا جاءوا لحرب وسفك دم ؟

أجاب الحليس ، وقد حُسم أمره داخليًا:

لا والله، ما رأيت غير الهدي، قد أكل أوباره من طول الحبس عن موضع نحره.

+

العودة إلى مكة، والاصطدام بالحقيقة

عاد الحليس ، لا كسفيرٍ سياسي ، بل كضميرٍ متحرّك .دخل على سادة قريش وقالها بلا مواربة:

يا معشر قريش ، والله ما جاء محمد محاربًا ، فخلّوا بينه وبين بيت الله.

سخر أبو سفيان ، فالسخرية آخر أسلحة العاجز :

ما زاد محمد على أن لعب بك يا حليس !

لكن الحليس لم يعد الرجل ذاته :

يا أبا سفيان ، هل عهدتَ من محمد غدرًا ؟

تلعثم أبو سفيان:

لا والله، غير أن، غير أن،

وسكت .والسكوت هنا كان اعترافًا.

+

انهيار الحلف، وصوت التهديد الأخلاقي

لما أُهين الحليس، انفجر غضبه :

والله ما على هذا حالفناكم ! يصدّ عن بيت الله من جاءه معظّمًا ؟ والذي نفس الحليس بيده ، لتخلنّ بين محمد وما جاء له ، أو لأنفرنّ معه بقومي نفرة رجل واحد !

هنا ارتعدت قريش ، ليس خوفًا من سيف الأحابيش ،بل من انكشاف أخلاقيٍّ يهدّد شرعيتهم.

هدّأوه، لا حبًا فيه ، بل خوفًا من انقلابه.

وعادت قريش إلى دار الندوة ، تتأرجح بين الحرب والسلام ، حتى استقرّ رأيها على محاولة أخرى،

وسأل السامع:

فمن أرسلوا إليكم هذه المرة ؟

أجاب عبد الله بن عمر، بنبرة من يعرف قسوة الاختيار :

اختاروا رجلًا من غير قريش ، من ثقيف ، من بني مسعود ، أعدى أسر ثقيف لبني هاشم، اختاروا أسوأ سفير، عروة بن مسعود.

وهكذا،

كان الحليس شاهدًا على أن التاريخ لا يُصنع بالسيوف وحدها ، بل بلحظة صدق حين يرى الرجلُ الحق، ولا يملك إلا أن ينحاز إليه.

سهلُ الحديبية، حين تكلّم التاريخُ بلسان القلوب

لم يكن التاريخُ الإسلاميُّ يومًا سردًا جافًّا للأحداث ، ولا عدًّا باردًا للأسماء والسنين ، بل كان ـ في جوهره العميق ـ حوارًا حيًّا بين الإنسان والقدر ، بين الوحي والواقع ، بين النفس حين تضعف ، والنور حين يتجلّى.

وما من حادثٍ جللٍ في سيرة رسول الله ﷺ إلا وتكاثرت رواياته ، لا اختلافَ تضادّ ، بل تنوّع زوايا ، واختلاف أنفاس ، واتحاد حقيقة. كأن الحدث الواحد قد مرّ على ألف قلب ، فخرج من كل قلب صادقًا ، متطابق الجوهر ، مختلف الظلال.

لقد روى يوم الحديبية أكثر من ألفٍ وأربعمائة رجل ، شهدوا أدقّ تفاصيله ، حملوه إلى أبنائهم وأحفادهم ، ثم إلى الأمصار ، فاستقرت الروايات كما تستقرّ النجوم في أفلاكها ، لا تصطدم ، ولا تتنافر.

وكان ذلك ـ ولا يزال ـ شوكة في عيون أعداء الإسلام ؛ إذ كيف يجتمع هذا الكمّ من البشر على رواية واحدة ، في زمنٍ لم يعرف الطباعة ، ولا التدوين المنهجي ، ولا سلطة تُلزم الناس برواية بعينها ؟

إنه الصدق ، وحين يكون الصدق أصلًا، يستحيل التناقض.

+

جلس سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وقد أحدق به أبناؤه وتلامذته ، وكانت الشمس تميل إلى الغروب ، تلقي خيوطها الذهبية على ملامحه الوقورة . تنفّس بعمق ، كأنما يستخرج من صدره زمنًا كاملًا، ثم قال بصوتٍ هادئ رزين ، لكنه محمّل بارتجاف الذكرى:

يوم الحديبية ، لم يكن يومًا عاديًا يا أبنائي ، كان امتحانًا للقلوب قبل أن يكون مفاوضة بين فريقين.

سكت لحظة ، وغاص بصره في البعيد ، كأنه يرى سهل الحديبية ماثلًا أمامه ، بخيامه ، ورماله ، ونفوسه المتوترة.

حين غلب في مكة الرأي القائل بمهادنة المسلمين ، على أن يكون ثمنها عودتنا إلى يثرب دون زيارة الكعبة ، اجتمعت قريش لتختار سفيرها،

قاطعه أحد الحاضرين ، وقد بدا الاستغراب في صوته :

ولِمَ اختاروا رجلًا من ثقيف يا أبا عبد الله ؟ أليس في قريش من يكفيهم ؟

ابتسم عثمان ابتسامة حزينة ، وقال:

ذلك من فعل أبي سفيان ، ولم يكن ، والله ، راغبًا في المهادنة حقًّا. كان يرى أن هذه فرصة أخيرة ، وأن قريشًا ما زالت قادرة على استئصال المسلمين ، بعد أن أعياها الفشل في بدر ، ثم أحد، ثم الخندق.

ثم أردف بصوتٍ أخفض:

ولو أنه اختار ثقفيًّا معتدلًا لهان الأمر ، لكنه اختار أشدهم بغضًا لرسول الله ، وأغلظهم طبعًا ، وأكثرهم سوء أدب : عروة بن مسعود.

تحرّكت الدهشة في الوجوه.

عروة ؟ ذاك الذي أسلم بعد ذلك ، وصار من أشد الناس حبًّا للنبي ؟

رفع عثمان رأسه ، وقد لمع في عينيه نور يقين:

وأيُّ عجبٍ في ذلك يا أبنائي ؟ إن الله يهدي من يشا ء، ولو بعد طول عناد.

+

عاد عثمان بذاكرته إلى مجلس قريش ، كأنما يسمع أصواتهم من جديد.

قال عروة لأبي سفيان :

يا أبا سفيان ، أرسلتم إلى محمدٍ الحُليس بن علقمة سيد الأحابيش ، فلما عاد ينصحكم أن تَدَعوا المسلمين يدخلون مكة معتمرين ، ثرتم عليه وقلتم ما لا يقال ! أفتفعلون بي إن عدتُ بمثل قوله ؟

ساد التردد ، ثم قال أبو سفيان ، وهو يزن الكلمات:

إن لم يكن من ذلك بد، عندها ، عندها ننزل عند رأيك.

ضحك عروة ساخرًا ، وقال:

ما أحسبكم تفعلون ، ولكني أرى رأيي ، وأبذل جهدي ، فإن أخذتم به ، وإلا عدتُ إلى قومي من ثقيف ، ولا أدخل مكة بعدها أبدًا.

كان الكبرياء يقوده ، لا الحكمة. وكان يرى نفسه سيّدًا يدخل على محمد ﷺ ليهزّه بالكلام ، ويخيفه بالوعيد.

+

قال عثمان:

جاءنا عروة في سهل الحديبية، يمشي مشية الزهو، كأن الأرض تطوى له، سعيدًا بأن قريشًا ـ حين اشتدّ بها الأمر ـ لم تجد إلا سيّدًا من ثقيف سفيرًا لها.

توقف قليلًا ، ثم قال بنبرة حاسمة:

جاء وقد أعدّ أخبث ما في جعبته ، التخويف ، والسخرية ، وتحطيم المعنويات.

ثم غيّر عثمان صوته ، كأنه ينقل المشهد حيًّا:

قال عروة ساخرًا:

ماذا ؟ أما زلتَ يا محمد، ومعك هؤلاء الأوباش ، في الحديبية ؟ ما حسبتُ ـ وربّ الكعبة ـ أنك تجسر على البقاء قرب مكة ، وأهلها يبغضونك ! غرتك نفسك يا محمد!

هنا، تحرّكت النار في القلوب.

كان المغيرة بن شعبة، يا أبنائي ، يقف خلف رسول الله ﷺ ، فما إن سمع ذلك حتى غضب غضبًا كاد يُسقط السيوف من أغمادها.

وقال المغيرة، وصوته يقطر حدّة:

والله لو زدتَ يا بعرة ثقيف ، لعلوتُ رأسك بالسيف!

تجمّد عروة ، وصرخ:

ماذا ؟ بعرة ثقيف ؟ أيقال هذا لسيد ثقيف يا محمد ؟!

عاد المغيرة ، كالسهم:

ويقال لك أشدّ من هذا وأقسى ، فقل ما أرسلك به سيدك!

قال عثمان:

رأيتُ الكبرياء ينهار في عينيه،

سيدك؟ قالها عروة مذهولًا.

ابتسم المغيرة ابتسامة جارحة:

أما وضعتَ شرفك وشرف قومك في التراب حين سلّمت قيادك لأبي سفيان ؟

لم يحتمل عروة هذا السيل ، فالتفت إلى رسول الله ﷺ، وقال :

آتيك في مضاربك ليُبدعني أصحابك بهذا القول ؟ من هذا الرجل المقنّع البذيء ؟

وكاد عمر بن الخطاب أن يضحك ، ثم قال:

دعْه يقول ما عنده يا مغيرة ، قل ما جئتَ به يا ابن مسعود.

احتدّ عروة:

تدعوه بأخيك ، وقد قال في سيد ثقيف ما قال ؟

اشتعل عمر ، وقال بعنف :

عجبًا لك يا ابن مسعود ! أجئتَ سفيرًا، أم جئتَ تستعرض شرفك ؟ قل ما عندك، ويحك!

تقدّم عروة، مخاطبًا رسول الله ﷺ:

يا محمد، أجمعتَ هؤلاء الأوشاب لتفضّ بهم مكة على أهلك ؟ واللات ، ما رأيتُ أحدًا يريد أن يستأصل أهله قبلك!

وهنا، قال عثمان بصوتٍ خاشع:

كنتُ أنظر إلى رسول الله ﷺ، فلم أرَ غضبًا ، ولا اضطرابًا. رأيتُ سكينة لو قُسّمت على جيشٍ لهدأ.

قال عمر في شدّة:

أقلِل من هذا الحديث مع رسول الله، فإن لم يكن عندك غيره فانصرف.

سكت عثمان طويلًا ، ثم قال:

ذلك اليو م، يا أبنائي ، لم يكن نصرًا بالسيف ، بل انتصارًا للعقل ، والصبر ، واليقين.

عروة خرج مهزوم الكبرياء ، لكنه عاد بعد حين مهزوم القلب أمام الحق ، فأسلم ، وأحب ، وبذل ، واستشهد .

ثم رفع بصره إلى السماء ، وقال:

هكذا يصنع الله ، يكسر القلوب المتكبرة ، ليبنيها على نور الهداية.

وساد الصمت ، صمتٌ يشبه صمت الحديبية ،

حين كتب التاريخُ بمداد الصبر ، وتكلّم الإيمانُ بلغةٍ لا يفهمها إلا من غاص في أعماق النفس ، حيث لا صوت يعلو فوق صوت الحق.

حين تُختبر القلوب عند أبواب مكة

حوار الكبرياء والإيمان

وتابع سيدنا عثمان بن عفان حديثه ، وقد مال بنا الزمن إلى تلك اللحظة المشحونة ، كأنما الرمل ما زال ساخنًا تحت أقدامنا ، وكأن أنفاس الرجال لم تزل معلّقة بين سيفٍ مغمود وكلمةٍ مرسلة.

قال عثمان ، وصوته يحمل وقار التجربة وهدوء من رأى القلوب قبل أن يرى الوجوه :

لعلكم أدركتم يا أبنائي أن عروة بن مسعود لقي في مضارب المسلمين ما انهارت به معنوياته ، وانفتأ كبرياؤه ، ذاك الكبرياء الذي حمله من الطائف إلى مكة ، ثم ألقاه عند أطراف خيامنا كعباءةٍ أثقلها الغبار . تلفّت حوله حائرًا ، لا يدري كيف يبدأ حديثه ، أَيَشتدّ أم يلين ؟ أيغادر مجلس رسول الله ﷺ غاضبًا ، أم يتمّ سفارته عارضًا وجهة نظر المكيين المتشدّدين ؟

وسكت عثمان هنيهة ، كأنه يفتّش في ذاكرته عن ملامح ذلك التردد ، ثم أردف:

كان عروة يومها رجلاً ممزقًا من الداخل. ظاهرُه سفيرٌ صلب ، وباطنه تاجرٌ يعرف أن للكلمات أثمانًا ، وأن للوجوه أسواقًا ، وأن خسارة المكانة قد تكون أوجع من خسارة المال .

لم يكن عروة يعلم – وهنا تبتسم الأقدار بسخريةٍ خفية – أن ذلك الرجل المقنّع الذي بدأه بالملاحاة ، وأشعل في صدره جذوة الغضب الأولى ، لم يكن إلا ابن أخيه المغيرة بن شعبة . كان المغيرة يقف خلف رسول الله ﷺ ، يده على قائم سيفه ، لا تحدوه رغبة القتال بقدر ما يسكنه وعيٌ حادّ بأن لحظة الغدر قد تولد من طرف عين ، وأن عمه – مهما بدا وديعًا – ابن ثقيف الذي عُرف بدهائه.

بعد لحظات من التردّد الثقيل ، قال عروة بن مسعود وقد عزم أن يأخذ رسول الله ﷺ بالشدة واللين معًا ، كما يفعل من يطرق بابًا لا يعرف أيفتح له أم يُغلق في وجهه :

يا محمد، كأنك لا تعرف قوة قريش ؟ لقد تعاهد الناس في مكة ألا تدخلها عليهم عنوة أبدًا ، فعد بمن معك ، ولا تفكر في العودة إلا حين ترجع عن هذا الدين الذي جئت به ، إلى دين آبائك وأجدادك.

اهتزّ المجلس ، لا من وقع الكلمات وحدها ، بل من جرأتها. قال عمر بن الخطاب ، وقد اشتعلت غيرته كما تشتعل نارٌ في هجير :

يا رسول الله، هذا الرجل لا يستحي ، فلا بقاء له هاهنا .

لكن عروة ، وقد رأى النار في العيون ، حاول أن يسكب عليها ماء الخديعة :

يا محمد، لا يغرّنك ما تسمع من هؤلاء ، فإنهم يكونون أول من ينكشفون عنك ، ويدعونك لسيوف قريش.

وهنا – والكلام لعثمان – لم أملك نفسي ، فقلت من فوري ، والكلمة تسبق الحساب :

أَنحن ننكشف عن رسول الله، يا صاحب دنان الخمر ، وطاعم الحرام من كسب صاحبات الرايات الحمر ؟

تجمّد وجه عروة دهشة ، كأنما لُطم على حين غفلة ، و قال :

أبا علي ، عثمان بن عفان ، لشدّ ما سحرك صاحبك ، وقوّى قلبك على أصحابك القدامى من التجار. قد كنتُ أعرفك أضعف من هذا قلبًا ، وأوهن جنانًا .

قال عمر ، وقد ضاق صدره بالملاحاة :

يا عروة ، أنت بدأت هذه الخصومة.

ثم انشقّ الوقت بنداءٍ سماويّ ، أذّن بلال لصلاة الظهر ، فقمنا إلى الفرض خلف رسول الله ﷺ . هنا تغيّر المشهد كله . سكنت الأصوات ، وخفتت الأنفاس ، وانحنى الجسد لما استقام القلب.

وكان عروة بن مسعود يشهد صلاتنا لأول مرة.

+

قال عثمان ، وقد غاص بصوته في عمق الذكرى:

حدّثني عروة بعد أن هداه الله إلى الإسلام يوم فتح الطائف ، فقال : ما أحسب هؤلاء وهم يصلّون ينتبهون إلى شيء غير ما هم فيه . كأنما تحرسهم ملائكة ربهم – فيما يزعمون – بل فيما رأيت. لقد قال لي خالد بن الوليد إنه حين رآهم بالجحفة يصلّون وقد غفلوا عن سلاحهم ، أراد أن يباغتهم بفرسانه ، فساخت قوائم فرسه. فعلم في نفسه أن محمدًا ممنوع ، وما أظنه إلا صدق فيما حدّث به نفسه ، ولولا المعرة لكنت أول من يتبعه من ثقيف.

+

انقضت الصلاة ، وعاد عروة إلى مجلس رسول الله ﷺ. هذه المرة رأينا في لهجته لينًا ، وفي كلماته رقةً غريبة على سفيرٍ جاء ملوّحًا بالوعيد. صار يلاطف رسول الله ﷺ ، ويعرض عليه رأي قريش ، وكان يتناول لحية النبي ليليّن قلبه ، كما جرت عادة العرب في مثل هذه المواقف.

لكن ذلك لم يرضنا. وكان أولنا رفضًا لذلك المغيرة بن شعبة ، الواقف خلف رسول الله ﷺ. ضرب يد عمه وهو يقول في غلظة الحق :

أيها الرجل ، اكفف يدك عن لحية رسول الله.

قال عروة، متألمًا ومستغربًا :

ولِمَ، ويحك ؟

قال المغيرة :

لا ينبغي ذلك لمشركٍ مثلك.

عاد عروة يخاطب رسول الله ﷺ :

يا محمد، قريش قومك ، وما أحسبك تريد لها الشر ، فأقبل ما يعرضه عليك سادتها من الانصراف بمن معك ، ولا ،

لم يُتمّ جملته. كانت يد المغيرة أسرع ، وضربه ضربة موجعة ، وقال:

قلت لك اكفف يدك عن مسّ لحية رسول الله. والله إن مددتها مرة أخرى ما تعود إليك بعدها.

قال عروة في ذهولٍ ممتزج بالغيظ :

ماذا؟ تهددني بقطع يدي ، أيها الرجل الذي يخفي وجهه بالقناع ؟ ما أفظك وما أغلظك ! يا محمد ، ليت شعري من هذا الذي يؤذيني بالقول والفعل في مجلسك ؟ ما أحسب في أصحابك من هو ألأم منه ولا شر منزلة.

وتبادلنا الضحكات المكتومة ، فلما رآنا قال في حيرة :

عجبًا، ممّ تضحكون ؟

قال له عمر :

يا عروة، لو عرفت من هذا المقنّع الذي يضربك كلما مددت يدك إلى لحية رسول الله، لأدركت لم نبتسم.

قال:

ومن يكون ؟

قال عمر و هو يبتسم :

ابن أخيك.

شهق عروة :

ماذا؟ ابن أخي ؟ ولكن أيهم ؟ إن لي أربعة إخوة، ولهم ثمانية أبناء.

قال عمر :

هو ابن أخيك شعبة ، المغيرة بن شعبة .

قال عروة ، وكأن الأرض مالت تحته :

المغيرة ؟ إذن فقد أسلمت يا مغيرة ؟ وصرت من أصحاب محمد ؟ ما أعجب هذا ! ماذا فعلت بهؤلاء الناس يا محمد ؟ صاروا لك أطوع من إبل الصدقة ، حتى يهددني ابن أخي بقطع يدي لأني مسست لحيتك!

قال المغيرة ببرودٍ قاطع :

أيها الفظ الغليظ، إنه الإسلام . أسلم ويحك ، ولا تكن عبدًا لأبي سفيان يسيّرك كيف يشاء.

عاد التوتر ، وقال عمر :

يا عروة ، هل غيرت ما جئت به ؟

قال عروة :

ما لك أنت ولهذا يا عمر ؟ كلامي مع محمد ، يا محمد إنك ،

قاطعه عمر بحزم :

يا عروة، قد علمنا ما جئت به ، ورسول الله يقول لك إنه جاء معظّمًا البيت لا محاربًا. فاذهب بهذا إلى من أرسلوك ، فإنا لن نعدل عن هذا أبدًا.

+

ثم سألنا عثمان:

أعاد عروة إلى الطائف دون أن يدخل مكة بخيبته ؟

قال عثمان:

حدّثته نفسه بذلك، لكنه كان تاجرًا لا يريد أن يغضب سادة مكة فتكسد تجارته. فما إن رآه أبو سفيان قادمًا حتى قال له ساخرًا : أراك – والله – قد عدت إلينا بغير الوجه الذي ذهبت به.

قال عروة :

قد كان ما خشيته.

قال أبو سفيان متوجسًا :

ويحك، كأني أرى الإسلام في وجهك ! سحرك محمد فأسلمت؟

قال عروة:

لم أسلم يا أبا سفيان. لو كان أمر قريش إليّ لخلّيت بين محمد وسائر العرب.

قال أبو سفيان:

ما غيرك يا عروة ؟

قال عروة ، وقد تحرر صوته من الخوف :

يا معشر قريش ، جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، فما رأيت ملكًا في قومه مثل محمد في أصحابه. رأيت قومًا لا يسلّمونه لشيء أبدًا ، ولا رأيت أحدًا يحب صاحبه كما يحب أصحاب محمد محمدًا. إني لكم ناصح ، فاقبلوا ما أعرضه عليكم ، ولا تسمعوا لأبي سفيان.

قال أبو سفيان غاضبًا:

ما هذا القول يا ابن مسعود ؟ واللات ، ما دفعك إليه إلا بغضك لقريش!

قال عروة بمرارة:

أليس هذا ما خشيت أن تقولوه إذا عدت بغير ما تريدون ؟

ثم قالوا له:

يا عروة، أحزنتنا أن تفشل سفارتك كما فشلت سفارة الحليس. عد إلى محمد ، وقل له ينصرف عنا هذا العام ، ويرجع العام المقبل.

قال عروة:

ما أشترك في خدعة كهذه. وما أحسبكم إلا ستردّونه العام المقبل كما تردّونه هذا العام. إني عائد إلى الطائف ، وما أراكم إلا ستصيبكم قارعة بهذا البغي.

وهنا ، ختم عثمان حديثه ، وقد ارتسم في عينيه ظلّ الحكمة :

واشتدّ تأزّم الموقف بين المسلمين ومشركي مكة. فشلت المفاوضات ، وثبت كلٌّ على رأيه ، ولم يبقَ إلا أن تتدخل السنن الكبرى للتاريخ ، حيث لا يُحسم الصراع بالسيف وحده ، بل بثبات القلوب حين تُختبر عند أبواب مكة .

الحديبية

حين انتصر العقل قبل السيف، وسجد التاريخ أمام بصيرة النبوة

في رأينا ، كما هو في رأي كثير من المؤرخين العرب وغير العرب ، أن يوم الحديبية ليس مجرد محطة عابرة في سيرة الإسلام ، بل هو منعطف كوني عميق ، تتقاطع فيه السماء مع الأرض ، والعقل مع القلب ، والسياسة مع الوحي. يومٌ يلي في أهميته وخطورته وتأثيره الهجرةَ ويومَ بدر، بل ويسبق – في ميزان الوعي التاريخي – فتحَ مكة ذاته.

ذلك لأن فتح مكة كان ثمرة ناضجة ، أما الحديبية فكانت البذرة، والبذور – في منطق التاريخ – أخطر من الثمار.

فالحديبية لم تكن مواجهة سيوف ، بل مواجهة عقول . لم تكن صليل حديد ، بل صراع رؤى. هناك ، على تخوم مكة ، وفي منطقة قاحلة لا تشي بشيء سوى الصمت والترقب ، كتب الإسلام واحدة من أعمق صفحاته، صفحة لا يفهمها من اعتاد قراءة التاريخ بعين الدم فقط.

+

الاستسلام الأول ، استسلام العقل

يقول المؤرخون:

إذا كانت مكة قد استسلمت في العام الثامن للهجرة بالسلاح ، فإن استسلامها الحقيقي ، العميق ، الفعلي ، كان يوم الحديبية.

فما كان فتح أبوابها للمسلمين بعد عامين إلا اعترافًا متأخرًا بأن العقول قد فُتحت من قبل، وأن القلوب – أو بعضها – كانت قد بدأت رحلة التهيؤ الطويلة.

لقد كانت معاهدة الحديبية معاهدة غير مسبوقة في تاريخ الإسلام ، بل في تاريخ الصراع الإنساني كله ؛ لأنها نقلت المعركة من ساحة الدم إلى ساحة الفكرة ، ومن منطق الغلبة إلى منطق الحكمة ، ومن ضيق اللحظة إلى سعة المستقبل.

حين تكلمت السماء

وحين اضطربت نفوس بعض المسلمين ، وضاقت صدورهم بما رأوه من بنود ظاهرها القسوة ، وباطنها الرحمة ، نزلت كلمات السماء تحسم الجدل ، وتعيد ترتيب الموازين:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾

هنا فقط، بدأ بعض الصحابة يدركون أن النصر ليس دائمًا صاخبًا ، وأن الفتح قد يأتي في هيئة صبر ، وأن الهزيمة الحقيقية هي هزيمة البصيرة.

+

مع الرواة، حيث لا يكذب التاريخ

كنا أمس مع أبطال يوم الحديبية ، مع الرواة الصادقين الذين لا يشوب روايتهم هوى ولا تحريف. ولن تجد – والله – أصدق ولا أنقى من رجال شهدوا الوقائع ، وعايشوا نزول الوحي ، وارتعشت قلوبهم وهم يسمعون السماء تخاطب الأرض.

كانوا يرون الأحداث ، لكنهم لم يكونوا دائمًا يدركون مقصدها الإلهي الكامل ؛ فجاء القرآن ليهدئ اضطرابهم ، ويثبت جنانهم ، ويغسل قلوبهم من وساوس الشيطان التي تتسلل حين تضيق الرؤية الإنسانية أمام حكمة الله الواسعة.

+

عبد الله بن عمر ، ذاكرة تمشي على الأرض

عدنا إلى راوينا الأول ، سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، ذلك القلب الهادئ ، والعقل المتزن ، والذاكرة التي حفظت التفاصيل كما تُحفظ الجواهر.

قال لي ، في سماحته المعهودة:

سل ما بدا لك يا بُنيّ ، فقد كان لي شرف مواكبة أحداث يوم الحديبية منذ ساعة خروجنا من يثرب ، حتى عودتنا إليها ، وإن بدا لك أننا عدنا بلا عمرة، فإننا – والله – عدنا ظافرين.

توقفتُ عند كلمته الأخيرة : ظافرين.

كيف يكون الظفر بلا دخول مكة ؟ كيف يكون النصر بلا طواف ولا سعي ؟

السؤال الذي يسكن كل عقل

قلت له :

لم يكن قد مضى على غزوة الأحزاب أكثر من عام ، وقد تكالبت عليكم قريش والعرب جميعًا ، فإذا بكم تخرجون قاصدين مكة للعمرة. أخطر ببالكم حقًا أن أهل مكة سيفتحون لكم الأبواب مرحبين ؟

ابتسم عبد الله بن عمر ، ابتسامة من يعرف ما لا نعرف، وقال:

نعم، هذا ما خطر ببال الجميع. بل لم يكن مجرد خاطر ، بل قناعة راسخة.

لماذا هذا اليقين ؟

سكت لحظة ، كأنه يستعيد المشهد ، ثم تابع:

أول الأسباب أن رسول الله ﷺ خرج طاعة لأمر الله. وحين يكون القرار سماويًا ، تسقط كل الحسابات الأرضية. لا نُفاضل ، لا نتردد ، لا نناقش الوحي.

ثم أضاف بصوت أكثر عمقًا:

كنا نعلم أن من يمشي بأمر الله لا يُخذل، وإن بدا الطريق وعِرًا.

شبهة الشورى ، وسوء الفهم المتعمد .

قلت له :

يزعم بعض مؤرخي الغرب ، ممن يحملون حقدًا دفينًا على الإسلام ، أن رسول الله ﷺ لم يطبق مبدأ الشورى في الحديبية ، رغم تطبيقه له في مواقع أخرى.

تغيرت ملامح عبد الله قليلًا ، لا غضبًا ، بل شفقة ، وقال:

لا شورى ، فيما يُؤمر به رسول الله من ربه. هذه قاعدة شرعية راسخة يتغافل عنها أعداء الإسلام عمدًا .

ثم اقترب بصوته من قلبي وقال:

تخيل لو أننا ناقشنا الحدود ، أو الفرائض ، أو المواريث ! أكان يبقى من الدين شيء؟

ثم توقف فجأة ، وقال بلطف:

ودعني أصحح خطأ وقعتِ فيه بسؤالك .

قلت :

وما ذاك ؟

قال:

سميتِ خروجنا غزوة ، وكيف يكون غزوًا ، ولم نحمل رماحًا ولا دروعًا ؟ لم يكن معنا إلا السيوف في أغمادها .

+

فلسفة السلام قبل الحرب

ثم أردف بنبرة حاسمة:

هل هذا سلاح من يخرج غازيًا ؟ ومن يغزو ؟ قريش ؟ العدو الذي جمع الأحزاب علينا ؟

وتابع:

إنما كان خروجنا حملة سلام ، لإقرار الأمن ، والقضاء على الأحقاد ، لأن الطمع والحقد هما أصل كل حرب.

سألته:

وما السبب الثاني لقناعتكم بتحقيق ما خرجتم لأجله ؟

قال:

دعني أجبك بسؤال: ما الشعار الذي كانت ترفعه قريش في كل حرب ؟

قلت:

كان أبو سفيان يقول : يا معشر قريش ، مكة حرم آمن ، ومحمد يفسد عليكم أمنكم.

ابتسم عبد الله وقال :

وها نحن نخرج معتمرين ، غير محاربين ، معظمين للبيت ، فكيف يثبت هذا الشعار ؟ كيف تفسر قريش للعرب منعنا من أداء الشعائر ؟

الحديبية ، فضيحة أخلاقية لقريش

هنا أدركتُ فجأة:

الحديبية لم تكن فقط معاهدة ، بل كانت محاكمة أخلاقية لقريش أمام العرب. كانت تعرية كاملة لخطابها ، وكشفًا لزيف دعايتها ، وانتصارًا ناعمًا لا يترك جرحًا ، لكنه يترك أثرًا لا يُمحى.

+

الغوص في عقل النبي ﷺ

وفي عمق المشهد ، كان رسول الله ﷺ واقفًا بهدوء يربك خصومه . كان يرى ما لا يراه غيره .كان يعلم أن التنازل الظاهري هو انتصار مؤجل. كان يعلم أن الزمن يعمل لصالح الحق ، لا لصالح الغضب.

في داخله ، لم يكن صراع ، بل يقين .لم يكن تردد ، بل بصيرة.

كان يسمع اعتراضات الصحابة بقلب الأب ، ويوقن أن الأيام ستشرح لهم ما لم تستوعبه اللحظة.

+

الحديبية ليست قصة ماضٍ ، بل درس مستقبل.

تعلمنا أن أعظم الانتصارات تبدأ من كبح الغضب ،وأن القيادة الحقيقية هي القدرة على رؤية ما وراء اللحظة ، وأن السلام ، حين يُفرض بحكمة ، قد يكون أشد وقعًا من ألف حرب.

هناك، في الحديبية ، لم ينتصر الإسلام بالسيف ، بل انتصر بالعقل ، وحين ينتصر العقل ، ينحني التاريخ احترامًا.

الحديبية

حين يفاوض الصبرُ السيوف، وتُصاغُ الهزيمةُ نصرًا في عقل النبوة

المثير ، يا سيدنا عبد الله بن عمر ، أن خروجكم ذاك لم يكن إلا بعد غزوة الأحزاب بأقل من عام واحد ، وكأن التاريخ كان يلهث خلف أقدامكم ، لا يمنحكم فرصة لالتقاط الأنفاس ، ولا يترك للذاكرة أن تبرأ من غبار الخندق وصرخات الريح وأحلاف الشرك. عام واحد فقط ، ومع ذلك بدا كأنه دهر كامل ، تغيّرت فيه النفوس ، وتهذبت فيه الأرواح ، وتعلّمت فيه الجماعة المسلمة أن النصر ليس دومًا صليل سيوف ، ولا فتح مدن ، بل قد يكون توقيع عهد ، أو قبول شرط ظاهره انكسار وباطنه ولادة عصر.

قال عبد الله بن عمر ، وقد أسند ظهره إلى ظل نخلة ، وعيناه لا تنظران إلى السامعين بقدر ما تنفذان إلى الوراء ، إلى تلك الأيام التي لا تزال حية في داخله .

وهذه وحدها ، من أقوى الدلائل على حيوية الإسلام ، وعلى قدرته العجيبة على تجاوز كل الصعاب ، متى أخلص المسلمون النية ، وتمسكوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. لقد خرجنا إلى الحديبية لا نحمل إلا السيوف في أغمادها ، واليقين في قلوبنا ، وما كنا نظن أن السلام قد يكون أشد وقعًا من الحرب.

كانت السفارات، كما تقولون اليوم ، قد فشلت كلها. لم تثمر محاولات العقلاء من الطرفين ، ولم تنجح رسائل المهادنة التي تسللت ليلًا بين خيام الحديبية وبيوت مكة. قريش كانت تريد أن تُكرهكم على العودة إلى يثرب ، بلا عمرة ، بلا طواف ، بلا اعتراف بحقكم في البيت العتيق. وأنتم ، في ظاهر الأمر ، لا تريدون إلا الدخول إلى مكة وأداء الشعائر. صراع إرادات، لكنه في العمق كان صراع مفاهيم: هل البيت ملك لقبيلة ، أم ربّ البيت أولى به ؟

قال عبد الله وهو ينظر إلى الأفق ، وقد لان صوته قليلا ، كأنما كان يخاطب نفسه قبل مخاطبة الآخرين :

أعود يا بني ، فأقول: إن دخول مكة لم يكن الهدف ، وإن ظنّ بعضنا غير ذلك. الهدف كان أعمق وأبعد: إقرار السلام ، وإثبات حق كل مسلم في زيارة بيت الله آمنًا. هذا المعنى غاب عن أذهان بعض إخواننا الذين وقفوا متحفزين في سهل الحديبية ، قبضات أيديهم على مقابض السيوف ، وقلوبهم على وشك الانفجار. أما رسول الله ﷺ ، فلم يغب عنه هذا الهدف لحظة واحدة ، وكأنما كان يرى ما لا نرى ، ويسمع همس الغيب فيما كنا نسمع ضجيج الواقع.

طال انتظارنا لسفيرٍ يُرضي الطرفين ، أو على الأقل يُقرّ بحقوقنا. عندها التفت رسول الله ﷺ إلى عمر بن الخطاب ، وعرض عليه أن يذهب إلى مكة سفيرًا ، يوضح لقريش حقيقة المقصد.

تنهد عبد الله تنهيدة حارة ، وكأن حزن أبيه لا يزال يسكن صدره ، وقال :

فقال أبي ، في أسفٍ صادق وحزنٍ ثقيل: يا رسول الله، إني أخاف قريشًا على نفسي ، وأخشى أن تقتلني بمن قتلت في بدرٍ وأحد. وصدق عمر ، والله، فما كان أحد أشد على مشركي قريش قبل هجرته منه. كان سيفه فكرة، وكان صوته حربًا.

ثم قال عمر ، وهو يعرف طبائع القوم:

إن لي في مكة أصحابًا يمنعونني ، فأرسلني إليهم.

لكن النبي ﷺ كان يرى أبعد من ذلك ، وكان يعرف أن الرسالة ، أحيانًا ، لا يحملها الأشد بأسًا ، بل الأوسع قبولًا.

سألتُه ، وقد شدني الخيط الاجتماعي في القصة :

ومن كان أصحاب عثمان بن عفان هؤلاء ، يا سيدنا عبد الله ؟

ابتسم ابتسامة خفيفة ، وقال :

يا ولدي ، هل نسيت أن عثمان بن عفان كان قبل إسلامه أعز بني أمية في مكة ؟ كان له من الحسب والنسب ما يجعله في مأمن من أذى كثير من المشركين. ما كان أحد يجرؤ أن يمسه بسوء دون أن تقوم عليه بنو أمية. لهذا أرسله رسول الله ﷺ.

ذهب عثمان ، رضي الله عنه ، إلى مكة ، لا يحمل سيفًا ، بل يحمل عقلًا هادئًا ، وقلبًا شفافًا ، وإيمانًا لا يتزحزح. اتجه مباشرة إلى دار أبي سفيان ، سيد بني أمية وزعيم قريش ، الرجل الذي خبر السياسة قبل أن تعرف العرب معناها المكتوب.

تفاجأ أبو سفيان بابن عمه واقفًا على بابه .

يا أبا علي ، أهلاً بك ومرحبًا في داري. وإن كنت لأعجب من حضورك إلى هنا دون ندوتنا في الكعبة. زيارة أم سفارة ؟

قال عثمان ، بصوت متزن :

سفارة ، يا أبا سفيان. أما عن مجيئي إلى دارك دون الكعبة ، فإني أعرف فيك المهادنة ، وعزوفك عن إثارة الأحقاد وإراقة الدماء ، فأملت أن أجد عندك النصفة.

هنا لجأ أبو سفيان، كعادته ، إلى اللف والدوران ، إلى السياسة المغلّفة بالعتب والاتهام.

وماذا أفعل يا أبا علي ؟ وصاحبك لا يريد إلا أن يدخل علينا مكة عنوة ! ألا يعرف أن ما من رجل في مكة إلا وله عنده ثأر ؟ ثارات بدر وأحد والخندق ؟ وبعد ذلك يأتي غازيًا ؟ من يرضى بهذا الهوان ؟ أترضاه أنت لقريش ؟

قال عثمان ، وقد ارتجف قلبه لا غضبًا، بل أسًى :

والله ما يرقّ صوت رسول الله ﷺ بقدر ما يرق إذا ذُكرت قريش. ما جاءكم إلا محبًّا ، وما خرج إلا معظّمًا لهذا البيت.

تدخل عثمان في حوار نفسي عميق ، كأنما يخاطب عقل أبي سفيان الباطن :

يا أبا سفيان ، أنت سيد مكة ، وما عرفتك إلا حليمًا إذا اشتدت الأمور. فلا تطع من يزين لك الحرب. والله ما يقدرون على إبادة المسلمين في الحديبية ، لا اليوم ولا غدًا.

ثار كبرياء أبي سفيان ، وقال مغضبًا :

كأنك تخوفنا بالحرب يا أبا علي ؟

فأجابه عثمان بهدوء الواثق :

ما جئنا لحرب ، بل جئنا معتمرين ، نطوف بالبيت ثم ننصرف. ولا يصدّنا عن هذا إلا ظالم. إياك أن تقول العرب: عجز سيد قريش عن حكم قريش.

لان شيء في قلب أبي سفيان ، وقال :

والله ما أحب أن يقول الناس هذا. لكن كيف أواجه بني مخزوم وبني أسد وبني عدي ؟ كيف أوافقكم بعدما كنت أول من دعا لرفضكم ؟

قال عثمان :

ما عجزت قط عن حمل الناس على ما تريد ، فكيف تعجز اليوم ؟

لكن أبا سفيان تنهد وقال :

لو راسلتموني قبل مجيئكم ، لكان الأمر أهون. أما الآن ، وأنتم على أبوابنا ، فلا أستطيع أن أخالف قريش.

قال عثمان :

فاسمع إذن ما جئت به: دعونا ندخل مكة بلا سلاح ، ونقسم عند الكعبة ألا تكرّوا علينا.

قال أبو سفيان :

لا أعد بذلك. لكنك أنت ، إن شئت، فطف. أنت في جواري.

هنا انتفضت روح عثمان ، وقال في إباء :

أطوف بالكعبة ورسول الله ﷺ لا يطوف ؟ والله لا يكون هذا أبدًا.

ضحك أبو سفيان وقال:

لشد ما تحبون صاحبكم.

فقال عثمان ، وفي صوته دعوة صادقة:

لو أسلمت يا أبا سفيان لأحببته كما نحبه. حتى متى يعمى عقل مثلك عن الإسلام ؟

فضحك أبو سفيان ، وقال :

لا والله ، لا يسحرني محمد كما سحركم ، هيهات.

وهكذا عاد عثمان ، لا بنصرٍ ظاهر ، لكن ببذرةٍ زُرعت في قلب التاريخ ، ستؤتي أكلها يومًا ، حين يدخل أبو سفيان نفسه في الإسلام ، ويعلم أن السلام الذي خافه كان هو الخلاص.

تحت شجرة الصمت: تكلّم الخوف، وتقدّم اليقين

واستطرد سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قائلاً ، وقد التفّ حوله أبناؤه وتلامذته في مساءٍ هادئٍ من أمسيات المدينة ، كأنّ الزمان عاد القهقرى ، وانشقّ التاريخ عن جراحه القديمة:

ليست الحوادث يا بَنيّ ما يُروى من ظاهرها ، بل ما يُخفى في صدور الرجال ساعة الامتحان.

ثم سكت لحظة ، وأطرق رأسه ، كأنّه يستدعي من أعماق الذاكرة وجوهًا غابت، وأصواتًا خنقتها الرمال، ثم قال:

كان أبو سفيان بن حرب يومئذٍ يقف على حافةٍ نفسيةٍ خطيرة ؛ لم يكن مجرد زعيمٍ سياسيّ ، بل رمزًا لهيبة قريش ، ومرآةً لغرورها التاريخي. غير أنّ تلك المرآة تشققت منذ غزوة الخندق ، يوم عادت الأحزاب خائبة ، وتركوا في صدر مكة فراغًا لم تستطع الكلمات ملأه.

في بطون قريش ، وفي مجالس دار الندوة ، تسللت الهمسات كالدخان:

- أين حنكة أبي سفيان ؟
- كيف قادنا إلى خيبةٍ لم تعرفها العرب ؟
- أليس فينا من هو أجرأ قلبًا، وأحدّ سيفًا ؟

وكان سهيل بن عمرو، ببلاغته الماكرة ، وصفوان بن أمية ، بعقله التجاري البارد ، وعكرمة بن أبي جهل ، بدم أبيه الذي يغلي في عروقه ، أول من شعر بأنّ الكرسيّ يهتزّ تحت أبي سفيان.

لم يعد القرار بيده وحده. صار محاصرًا بالخوف من قومه ، قبل أن يكون محاصرًا بعداوة محمد ﷺ وأصحابه.

+

وحين دخل عثمان بن عفان رضي الله عنه مكة ، دخلها لا كسفيرٍ فحسب ، بل كضميرٍ حيّ.

كان يمشي في طرقاتها بثوب الوقار ، وعينين تعرفان الجاهلية والإسلام معًا. ابنُ هذه المدينة ، لكنه غريبٌ عنها بروحه.

دخل على أبي سفيان ، وبينهما تاريخٌ من رحم بني أمية ، وصداقة قديمة قبل أن تفصل العقيدة بين القلوب.

قال عثمان ، بصوتٍ هادئٍ كالماء:

يا أبا سفيان ، إن رسول الله ﷺ بعثني إليك ، يدعوك إلى أن تخلّي بينه وبين الناس ، وأن نطوف بالبيت آمنين ، لا نريد حربًا ولا دمًا.

هنا لم يجب أبو سفيان مباشرة . نظر إلى الأرض ، ثم إلى جدران داره ، كأنّها تسمعه أكثر مما يسمع عثمان.

في داخله كان حوارٌ صاخب:

- إن وافقتُ ، قالوا خذل قريشًا.
- وإن رفضتُ ، دفعتُ مكة إلى حربٍ لا أضمن مآلها.
- وهؤلاء الثلاثة ، إنهم ينتظرون سقوطي.

رفع رأسه أخيرًا وقال ، بنبرةٍ مثقلة:

يا أبا علي ، القوم يأتمرون بك ، ليس الأمر أمري.

قال عثمان:

فدعني أعود إلى أصحابي في سهل الحديبية.

لكنّ الوجوه من خلف أبي سفيان لم تكن بريئة. قالوا:

- إما أن نقتله.
- وإما أن يبقى في دارك أيامًا ، حتى نرى رأينا.

وهنا انفجر السؤال الأخلاقيّ:

يا أبا سفيان ، وافقتهم على ما يريدونه بي ، وأنا ابن عمك ، وفي جوارك ؟

تردّد أبو سفيان ، ثم قال:

أنت آمن ما بقيت في داري ، ولن يطول بقاؤك.

كانت كلمات الأمان جوفاء ، يعرف عثمان خواءها ، ويشعر أنّه سجينٌ وإن لم تُغلَق الأبواب.

+

لم يكن عثمان ساذجًا.

كان في الأيام السابقة قد زار بيوت المسلمين المحبوسين في مكة ، ورأى الخوف في عيونهم ، والسرّ في صمتهم . علم أنّ قريشًا راسلت غطفان ، ومزينة ، وهوازن ، وبكر ، علم أنّ الحديبية ليست سهل سلام ، بل فخًّا يتكوّن ببطء.

قال لابي سفيان ، بعينين ثابتتين:

والله إني لأعلم لم تحبسوني ، تخشون أن أذهب إلى رسول الله بما فعلتم.

ثم أردف ، كمن يقرأ صحيفة الغيب:

أتحسبني لم أعرف أنكم تستنفرون القبائل ليحصروا المسلمين ؟

ارتبك أبو سفيان .قال سريعًا:

كذب من أخبرك.

فقال عثمان، بكلمةٍ صارت قدرًا:

والله ما يكذب سواك ، ولكن الله موهن كيدكم.

+

في تلك اللحظة ، لم يعد عثمان مجرد رسول .صار خطرًا.

دار في نفس أبي سفيان صراعٌ مرير:

- إن تركته ، نقل الخبر.
- وإن قتلته ، فدم بني أمية عليّ.

لكنه اختار أسهل الطرق على النفس الخائفة : التأجيل بالعنف المقنّع.

ابقَ في دارك حتى نرى رأينا.

وهكذا غاب عثمان ثلاثة أيام، معتقلاً بلا قيود، لكنّ السمّ كان في الهواء.

+

وفي سهل الحديبية ، كانت القلوب معلّقة . طال الغياب ، ثم جاءت الشائعة:

قتلوا عثمان.

زلزلت الكلمة الصفوف.

وجلس رسول الله ﷺ ، وقد بدا الحزن في وجهه ، لا كزعيمٍ سياسي ، بل كأخٍ فقد أخاه.

قال عبد الله بن عمر:

ما رأيتُ يومًا كان أثقل على المسلمين من تلك الساعة.

+

وفي هرج المشاعر ، انطلق صوت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كالرعد:

يا معشر المسلمين ! رسول الله يقول لكم : لا نبرح حتى نناجز القوم !

ثم صرخ :

البيعة ، البيعة !

نزل القرار من السماء :

[لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة.]

فتقدّم الرجال ، لا كجنود ، بل كأرواحٍ اختارت معناها .بايعوا على الموت ، على القتال ، على ألا يعودوا إلا بنصرٍ أو شهادة.

+

وسكت ابن عمر ، ثم قال :

هكذا تُصنع اللحظات الكبرى ، ليس بالسيوف وحدها ، بل حين يتقدّم اليقين على الخوف ،ويُفضَح الزيف أمام الصدق.

ثم نظر إلينا وقال :

تعلّموا يا بَنيّ ، ليس كل من خاف جبانًا ، لكنّ الجبن أن تقتل الحقّ خوفًا على الكرسي

.

حوار الحديبية في مرآة النفس والتاريخ

ما زلنا في سهل الحديبية ، ذلك السهل الذي لا يُقاس امتداده بالأقدام ، بل بما احتمله من صبر ، وما انطوى عليه من توترٍ مكتوم ، وما شهد من تحولاتٍ غيرت مجرى التاريخ . هنا، حيث كانت الرمال تصغي للأنفاس ، وحيث كانت القلوب تتأرجح بين السيف والسلام ، جلسنا حول محدثنا :**الفقيه التقي النقي، صاحب رسول الله ﷺ، عبد الله بن عمر** رضي الله عنهما.

كان صوته هادئًا ، لكنه يحمل في طبقاته صدى أيامٍ لا تُنسى ، وعيناه تنظران إلى الماضي لا بوصفه ذكرى ، بل بوصفه درسًا حيًّا لا يزال يتنفس.

سألناه ، وقد شاع بين جموع المسلمين في سهل الحديبية أن مبعوث النبي ﷺ إلى قريش ، **عثمان بن عفان** رضي الله عنه ، قد قُتل:

ماذا بعد ؟

تنهد عبد الله بن عمر ، وكأن السؤال أعاد فتح بابٍ داخليٍ عتيق ، وقال بصوتٍ يختلط فيه التعليم بالحنين :

لستُ في حاجة ، يا أبنائي ، أن أُعيد ما ذكرتُه لكم أمس عن حرص رسول الله ﷺ على الوصول مع مشركي مكة إلى اتفاقٍ يصون السلام زمنًا طويلًا ، ويُقرّ لنا حق زيارة مكة في المواسم . ذلك الحق الذي لم تُنكره العرب يومًا ، مهما بلغت العداوة بينها وبين قريش.

ثم سكت قليلًا ، كأنما يترك للعقل أن يستحضر الصورة ، قبل أن يتابع:

أما كنتم تعلمون أن حرب الفِجَار نفسها ، على شدتها ، كانت تخمد جذوتها عند حلول الموسم ؟ تدخل قبائل عبس وذبيان وهوازن مكة ، وهم بالأمس خصومٌ في الدم والسلاح ، فلا يلقون من قريش إلا ما يلقاه كل معظمٍ للبيت الحرام.

قاطعه أحدنا متسائلًا ، وفي صوته شيء من الاستفهام والاحتجاج:

وهذا ما أباه عليكم ؟

ابتسم ابن عمر ابتسامةً خفيفة ، وقال :

ومن أجل هذا بالذات ، كان رسول الله ﷺ أشدَّ الناس حرصًا على تقرير هذا الحق للمسلمين . لم يشأ أن يفرضه بالسلاح ، مع أن السلاح كان حاضرًا ، والرجال كانوا مستعدين ، وإنما بذل كل مساعيه السلمية ليحمل قريشًا على إباحة بيت الله للمسلمين ، كما تبيحه لسواهم من قبائل العرب.

ثم أخذ يسرد ، لا كراوٍ محايد ، بل كشاهدٍ عاش اللحظة:

في كل مرةٍ كانت تبعث إلينا مكة بسفير، كان رسول الله ﷺ يؤكد له ، مرةً بلسانه ، ومراتٍ على ألسنة كبار الصحابة ، أنه لم يأتِ محاربًا ، بل معظِّمًا للبيت الحرام.

وتوقف قليلًا، ثم قال بصوتٍ أعمق:

حتى إذا جاء عروة بن مسعود ، عدو المسلمين وعدو قريش معًا ، وسأل رسول الله ﷺ سؤالًا يحمل في ظاهره الاستنكار وفي باطنه الاتهام :

قد كنتَ يا محمد خرجتَ من مكة بسلاح المسافر ، السيوف في القُرُب ، فلماذا حين بلغتَ ثنية المرار أرسلتَ صاحبك عبد الله بن رواحة ليجلب لكم من يثرب الرماح والدروع والخيل ؟

لماذا ، إن لم يكن القتال في نيتكم ، معشر المسلمين ؟

هنا تغيّر صوت عبد الله بن عمر ، وبدت في نبرته ملامح اعتزازٍ ممزوجٍ بصرامة، وقال:

يومها ، يا أبنائي ، أجابه أبي عمر بن الخطاب ، في غِلظةٍ مشتدًّا عليه:

ويحك يا ابن مسعود ! أتريدنا أن نقف عُزّلًا من السلاح ، وقد أغلق علينا خالد بن الوليد الطريق إلى مكة بخيله ؟ أتريد أن نُعرّض نحورنا لسيوفه دون أن ندافع عن أنفسنا ؟

ثم أضاف ، كمن يُحلّل المشهد لا كمن يرويه فقط:

كان ذلك الفارق الدقيق بين نية السلام وواجب الحذر ؛ سلامٌ لا يُلغِي العقل ، ولا يُسقط فقه الواقع.

سألنا :

وحتى حين وقفتم في سهل الحديبية ، تأملون نجاح السفارات بينكم وبين قريش ، لم ترفعوا السلاح في وجه من هاجموكم ؟

أطرق عبد الله بن عمر رأسه ، ثم قال :

نعم. عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، ومعهما سهيل بن عمرو ، كانوا يريدون إشعال القتال. كانوا يرون في الحديبية فرصةً نادرة للقضاء على القلة المسلمة . فأغاروا على أطراف معسكرنا.

وسكت لحظة، كأنما يستعيد صورة الغبار وصليل السيوف، ثم تابع:

فلما تصدّينا لهم وأسرنا بعض رجالهم ، صنعنا بالأسرى ما لم يخطر ببال قريش أن تفعله.

سألنا بلهفة :

وما ذاك ؟

قال :

أعدناهم إلى قريش سالمين ، بعد أن قال لهم أبي عمر ، عن رأي رسول الله ﷺ:

قولوا لقريش إننا لا نريد حربًا ولا قتالًا ، إنما نريد أن ندخل مكة معتمرين ، ثم ننصرف بعد أداء الشعائر في أمان.

ثم أضاف ، بنبرةٍ تحليلية نفسية :

كنا نراهن على لين القلوب ، لا على كسر العظام . وقد تحقق شيء من هذا الأمل يوم مال أبو سفيان إلى جانب المسالمة . لكننا لم ندرِ بذلك ، حتى ثارت الشائعة : **عثمان بن عفان قد قُتل.**

وهنا تغيّر كل شيء.

قال ابن عمر ، وصوته يهبط احترامًا للمقام :

أمرنا رسول الله ﷺ أن نبايعه على الموت. تلك ، يا بني ، كانت **بيعة الرضوان** ، التي بشّر القرآن أصحابها بالجنة. لم تكن بيعة حماسٍ أعمى ، بل بيعة وعيٍ كامل ، يدرك ثمن الطريق.

سألنا:

قررتم بعدها دخول مكة بقوة السلاح ؟

قال :

على هذا كانت البيعة . غير أننا ، ونحن نُعدّ أمرنا لمغادرة سهل الحديبية لفتح مكة ، رأينا عثمان بن عفان عائدًا إلينا.

وارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة ، وقال :

عانقه رسول الله ﷺ عناق الفرح والمحبة ، وطفق أبي وأبو بكر يسألانه عن حال مكة : ماذا قال لهم ؟ وماذا قالوا له ؟

قال عثمان ، كما نقل عبد الله بن عمر :

انقسمت قريش فريقين :

فريق لا يريد إلا الحرب ، يعدّ العدة لمحاصرتنا في الحديبية ، وقد وافتهم قبائل غطفان وبكر ، ويتزعم هذا الفريق عكرمة وصفوان .

وفريقٌ آخر ، يتزعمه أبو سفيان بن حرب.

قال عمر :

عكرمة لا ينسى مقتل أبيه في بدر ، وصفوان لا ينسى مصرع أحبّته ؛ أبيه وأخيه وزوج أخته . لا غرو أن يحرّضا الناس علينا.

وقال أبو بكر ، بحكمته المعهودة :

والفريق الثاني ؟

قال عثمان :

يقول أبو سفيان: إن انصرف عنا هذا العام ، فلا مفرّ من أن نتركه وما يريد. فإن أتانا في قابلٍ ومنعناه ، ركبنا عار الأبد ، وضاعت هيبة قريش في الجزيرة.

سأل أبو بكر ، وفي سؤاله بُعد نظر:

أيرضى رسول الله ﷺ بالعودة دون أداء الشعائر ؟

قال عثمان:

قلتُ لأبي سفيان : إن رسول الله ﷺ لن يقبل هذا. فقال : وما ضرّ أن نترك له شيئًا ويترك لنا شيئًا ؟

وختم عبد الله بن عمر حديثه قائلًا:

عندها أدركنا أن قريشًا عادت إلى المفاوضات ، وأنهم سيبعثون إلينا سفيرًا من المعتدلين ، **سهيل بن عمرو**.

هنا صاح عمر، محتجًّا:

وهل هناك من يبغض المسلمين كبغض سهيل ؟

لكن عثمان قال:

رأيته ألينهم جميعًا ، وأحسبه قد راجع نفسه ، بعد أن أسلم أحباؤه.

وسكت ابن عمر ، ثم قال كمن يختم درسًا في فقه النفس والتاريخ:

هكذا ، يا أبنائي ، تُصنع اللحظات الفاصلة: ليس بالصوت الأعلى ، بل بالعقل الأهدأ ، وليس بالسيف دائمًا ، بل بالصبر الذي يُربك خصمك قبل أن يُرهقك.

وساد الصمت ، صمتٌ يشبه صمت الحديبية ، حين كان التاريخ يُعيد كتابة نفسه بهدوء.

حين سَهُلَ الأمرُ ، حوارُ الروحِ عند الحُديبية

لم يكن الطريق إلى الحديبية مفروشًا بالرمل وحده ، بل كان ممتلئًا بالأسئلة ، مثقلاً بالتاريخ ، مشدودًا بين قلبين: قلبٍ آمن مطمئن ، وقلبٍ يتأرجح بين ما كان وما سيكون.

حين بلغ رسولَ الله ﷺ أن سفير قريش القادم هو **سهيل بن عمرو** ، انفرجت شفتاه بابتسامة هادئة ، وقال كلمته التي عبرت الزمان:

سَهُلَ أمركم .

كلمة قصيرة ، لكنها سقطت في نفوس الصحابة سقوط الحجر في الماء الساكن ، فارتجّ السؤال في العيون:

كيف يكون في سهيل الخير ، وهو ما عرفناه إلا خصمًا عنيدًا ، ولسانًا لاذعًا ، وموقفًا لا يزيد النار إلا اشتعالًا ؟

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومئذٍ يرى بميزان الظاهر: تاريخ الرجل ، مواقفه ، كلماته التي طالما آذت المسلمين .

أما رسول الله ﷺ ، فكان يرى بميزانٍ آخر ، ميزان القلوب قبل أن تستقر ، ومصائر الأرواح قبل أن تعلن.

+

ولنترك الساحة قليلًا ، ولنُدنِ أذننا من **سهيل بن عمرو** نفسه . ذاك الرجل الذي وقف يومًا يخطب في قريش ، فتسكت الأصوات ، وتنقاد العقول ، فإذا هو اليوم يقف أمام نفسه ، لا أمام محمد ﷺ.

قال سهيل ، وقد بدا في صوته مرحٌ غريب لم يألفه منه أحد:

حين خرجتُ إلى الحديبية ، كنتُ مشركًا. بل دعني أكن أدقّ: كنتُ **نصفَ مشرك**.

رفعتُ حاجبي دهشة ، وسألته :

نصف مشرك ؟ وكيف يكون المرء نصفًا في أمرٍ لا يقبل القسمة ؟

ابتسم ابتسامةً حزينة ، وقال:

كنتُ واقفًا على الحدّ الفاصل ، أتأرجح بين ظلمةٍ أعرفها ، ونورٍ أخشاه. لم أكن منكرًا للحق تمامًا ، ولا قادرًا على اعتناقه.

قلتُ، غير مصدق:

أكنتَ إذن ذاهبًا لتُسلم يا سهيل ؟

فضحك ضحكة قصيرة، فيها مرارة السنين :

لا ، والله لا. ذهبتُ لأحقق هدف قريش الأكبر :

ألا يدخل محمد مكة هذا العام .هكذا كانت تعليمات أبي سفيان :

ائتِ محمدًا فصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا .

سكت قليلًا ، ثم خفت صوته ، كأن الذكرى أثقل من أن تُحمل دفعة واحدة:

ومع عزمي ذاك ، بكيتُ الليلة التي سبقت خروجي. بكيتُ حتى الصباح. لم يغمض لي جفن.

سألته :

ولمَ البكاء ؟

تنهد ، وقال:

لم تسأل ؟ كيف لا يبكي رجلٌ بلغ الخمسين ، وقد صار **وحيدًا فريدًا في مكة ؟**

هنا تغيّر صوته، لم يعد صوت الخطيب، بل صوت الأب المكسور.

كان بيتي ، قبل محمد ﷺ ، عامرًا بالحب. أربعة من الأبناء ، كالرماح العوالي ، وابنةٌ كانت قرة عيني. زوّجتها شابًا من خيار بني مخزوم.

ثم ، انقلب كل شيء .أسلم أولادي واحدًا بعد الآخر. هاجروا إلى يثرب مع زوجاتهم. ثم أسلم أبو حذيفة زوج ابنتي سهلة ، وخرج بها إلى الحبشة ، ثم إلى يثرب. تركوا شيخهم وحيدًا ، وتركوني أعدّ الجدران بدل الوجوه.

ساد صمت ثقيل ، ثم قال ، وفي صوته غضبٌ قديم :

فكيف لا يشتدّ غيظي على من ظننته سبب شقائي ؟ لم أكن أعلم – والله – أن ما حدث كان فضلًا من الله عليّ ، وأن إسلامهم كان الجسر الذي سأعبره أنا يومًا.

سألته :

ألك أبناء غيرهم ؟

قال:

نعم. ولدٌ خامس. أخذته أمه حين طلّقتها ، وذهبت به إلى هوازن. لم أعلم بإسلامه إلا حين جاءني في مكة ، يواجهني بالحقيقة ، ويدعوني إلى الإسلام.

ومن هو؟

خفض رأسه:

أبو جندل.

قالها، فكأن الاسم وحده فتح جرحًا جديدًا.

ما إن صارحني حتى أمرت بحبسه ، قيّدته في داري ، وجعلت عليه من يحرسه. وحين خرجتُ إلى الحديبية ، كنتُ مشتت الذهن ، مضطرب القلب .أطمع في أن يجتمع شملي بأولادي ، وأقاوم في الوقت ذاته رغبةً عاصفةً تدفعني إلى الإسلام ، ليعود البيت كما كان ، وتقرّ عيني بأبنائي حولي.

سألته :

وكيف وجدتَ نفسك في مفاوضاتك مع رسول الله ﷺ ؟

تنفّس بعمق ، كمن يتهيأ للاعتراف:

كانت أقسى أيام صراعي مع الشرك .رأيتُ المسلمين في صلاتهم ، السكينة تظلّلهم ، والوقار يكسو وجوههم .رأيتهم حول محمد ﷺ كالنجوم حول القمر ، يتنافسون على وضوئه ، يلتقطون شعره إذا سقط ، يطيعونه طاعة الطفل لأمه ، بل أهدى.

سكت ، ثم تابع:

كان يحنو عليهم ، ويقرأ القرآن ، فتنهمر دموعهم ، لا خوفًا ، بل حبًا. كنتُ أرى ذلك ، فيرفّ قلبي ، ثم أضربه بذكريات الأصنام ، وخرافات الآباء ، وقساوة السنين.

خفض صوته أكثر:

ودمعت عيناي ، حين رأيتُ ابني عبد الله ينافس زوج ابنتي أبا حذيفة على شعرة سقطت من شعر رسول الله ﷺ.

سألت نفسي: أي دين هذا الذي فرّق بيني وبينهم ، ثم جمع قلوبهم على هذا الرجل؟

+

وفي أعماق سهيل ، كان حوارٌ آخر يدور ، حوارٌ لا يسمعه أحد.

أأنا المخطئ ؟ أم أنني آخر من بقي يحرس وهمًا ؟ أيمكن أن يكون محمد صادقًا، وأنا من أعمى نفسه ؟ لماذا أشعر بالطمأنينة حين أنظر إليهم ، وبالوحشة حين أعود إلى نفسي ؟

كان عقله يقاوم ، وتاريخه يقاتل ، وكبرياؤه يصرخ:

كيف أُسلِم بعد أن كنت خطيب قريش ؟

لكن قلبه ، كان قد بدأ يلين.

+

انتهت المفاوضات. كُتب الصلح ، وفي بنوده ما آلم كثيرًا من المسلمين.

ورأى عمر رضي الله عنه ما رأى ، وقال ما قال.

أما رسول الله ﷺ، فكان ثابتًا ، كمن يرى ما وراء السطور.

لم يكن يعلم الصحابة آنذاك أن **سهيل بن عمرو** الذي شدّد في الشروط ، سيقف يومًا بعد فتح مكة خطيبًا في الناس ، يثبّت القلوب بعد موت النبي ﷺ، ويقول:

من كان يعبد محمدًا ، فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت

عندها فقط ، فهموا .فهموا معنى : **سَهُلَ أمركم** . وفهموا أن النبي ﷺ لم يكن يقرأ الحاضر ، بل يقرأ المصير.

وهكذا ، لم تكن الحديبية صلحًا سياسيًا فحسب ، بل كانت **مخاضَ روح** ، وولادةَ قلبٍ طال انتظاره.

وكان سهيل بن عمرو ، شاهدًا على أن الله يهدي من يشاء ، حين يشاء، وكيف يشاء.

على ضفاف الحديبية

حين يتكلم التاريخ بلغة النفس والعقل

أسلمتَ في تلك الأيام يا أبا عبد الله؟

كان السؤال يخرج من أفواه الفتيان كأنه سهمٌ مشحون بالدهشة ، لا بالاستفهام وحده. التفوا حول الشيخ وقد أحدودب ظهره ، لكن عينيه ظلّتا متقدتين بوميضٍ غريب، وملامحه تحمل آثار صراعٍ قديم لم تطفئه السنين.

تنفّس سهيل بن عمرٍو بعمق ، كأنما يغوص في بئر ذاكرته ، ثم قال بصوتٍ هادئ يحمل ثِقَل التجربة:

لم يكن الله قد أراد لي الهداية بعد ،

وتوقّف لحظة ، كأن الكلمة أثقل من أن تُقال دفعة واحدة.

كنتُ يومها رجل قريش ، ولسانها ، وميزان كبريائها. جعلتُ همّي كلّه أن أُحقق رغبة القرشيين في المفاوضات ، لا رغبة السماء.

ساد صمتٌ قصير، لم يقطعه إلا حفيف الريح كأنها تُقلب صفحات الماضي.

+

كيف وجدتَ رسول الله ﷺ في مفاوضاته يا أبا عبد الله ؟

هنا تغيّر وجه سهيل. لم يعد وجه السياسي الماكر ، بل وجه الإنسان الذي اكتشف متأخرًا أنه كان يقف أمام عبقرية من طراز آخر.

قال ببطء ، وكأنه يزن كل لفظ:

لم أعرف زعيمًا قط يدرك هدفه ويتوخّاه مثل محمد بن عبد الله . كان يرى ما لا نراه ، ويحسب ما لا نحسب. وضع نصب عينيه هدفًا واحدًا ، واضحًا ، محددًا ، لا تشوبه نزوات اللحظة ولا انفعالات الغضب : أن يفتح باب التفاهم مع قريش ، ولو من شقٍّ ضيّق.

كنا نظن أن الحديبية تنازل ، لكنه كان فتحًا مؤجَّلًا . كنا نظن أن الشروط إذلال ، فإذا بها تأسيس لدولة العقل قبل دولة السيف.

وهل أدركتَ أنت ذلك يا أبا عبد الله ؟

ابتسم سهيل ابتسامةً ممزوجة بالمرارة ، وقال:

كلا يا أبنائي ، كلا.

لو أدركتُ يومها ما أدركه هو ، لكنتُ أول من وقّع لا آخر من فاوض.

ثم مال بجسده إلى الأمام ، كأنما يستحضر المشهد حيًّا أمامه:

حين انتهى علي بن أبي طالب من كتابة عهد الحديبية ، بعد مفاوضات شاقة دامت أيّامًا ثلاثة ، كنتُ أظن - وأنا الخارج لتوّي من معركة كلام - أني انتزعتُ لقريش كل ما تريد، دون أن يحصل المسلمون على شيء. كنتُ أرى النصر بعين السياسة القريبة ، لا بعين التاريخ البعيد.

لكن ، والله يا أبنائي ، كان العكس هو الصحيح تمامًا .حصل المسلمون على كل شيء ، ولم تفز قريش بشيء قط.

وسكت الشيخ لحظة ، ثم قال:

استمعوا إلى ما جاء في العهد لتدركوا ما أعنيه.

باسمك اللهم ، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكفّ بعضهم عن بعض ،

قال سهيل:

أتدرون ما معنى هذا ؟

معناه أن السيوف صمتت ، لكن العقول بدأت تتكلم. وحين يتكلم العقل في أجواء الأمن ، ينتصر الحق بلا دم.

+

لم تتوقف الحرب إلا عامًا وثلاثة أشهر، ومع هذا ،

رفع سهيل إصبعه كمن يقرر حقيقة فلسفية:

دخل في الإسلام في هذه الفترة عشرة أمثال من دخلوا فيه منذ جهر رسول الله بدعوته في مكة.

في الحديبية كان المسلمون ألفًا وأربعمائة رجل .وحين جاء فتح مكة ، بعد عام واحد ، كانوا أكثر من عشرة آلاف. لم يكن هذا بسبب السيف ، بل بسبب السوق ، والمجلس ، والكلمة. كان الناس يلتقون في الأسواق ، في المواسم ، في الطرقات ، يسمعون القرآن ، يناقشون في هدوء ، ويتجادلون بلا خوف . وما نأى عن الإسلام ذو عقل.

ثم قال أحد الفتيان متردّدًا:

لكن يا أبا عبد الله ، ذاك البند الذي يقول :

من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليّه رده عليهم ، ومن جاء قريشًا مع محمد لم يردّوه إليه ، ألم يكن مجحفًا ؟

تنفّس سهيل طويلًا ، وكأن السؤال أيقظ في داخله صدى قديمًا.

نعم ،

قالها بصدقٍ نادر.

أثار هذا البند جدلًا بين صحابة محمد ﷺ ، لأنهم نظروا إليه بعين العدالة اللحظية ، لا بعين الحكمة الكونية.

ثم أضاف:

لم يدركوا ما أدركه رسول الله . ويكفي أن تسمعوا ما قاله لعمر بن الخطاب حين ثار في صدره هذا الشرط:

من جاءنا منهم رددناه إليهم ، سيجعل الله له فرجًا ومخرجًا ، ومن أعرض عنا وذهب إليهم فلسنا منه في شيء .

هنا كانت الفلسفة النبوية في أعمق صورها:

الإنسان حر في اختياره ، والدعوة لا تقوم على الاحتجاز ، والصف لا يتقوّى بالضعفاء المترددين.

ثم مال سهيل إلى الوراء ، وحدّق في السماء ، وقال بصوتٍ خافت:

لكن البند الأخطر ، هو ذاك الذي وقّعتُ عليه بيدي ، دون أن أفهمه بعقلي.

ومن أراد أن يدخل في عقيدة محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقدة قريش وعهدهم دخل فيه.

هل أدركتم ما وراء هذا ؟ إنه اعتراف صريح من قريش - لأول مرة - بالمسلمين طرفًا سياسيًا مساويًا لها. كنا نسميهم من قبل: الصابئين ، العصاة ، الخارجين. لكن بعد هذا البند ، أصبحت حكومة المدينة حقيقة لا يمكن تجاهلها.

وسارعت القبائل - التي كانت تخشى غضب مكة - إلى التحالف مع المسلمين ، فزادهم ذلك عددًا ، وسلاحًا ، ونفوذًا.

سكت سهيل، ثم قال بنبرة أقرب إلى الاعتراف النفسي:

في الحديبية، لم ينتصر محمد على قريش ، بل انتصر على ذهنيتنا نحن. انتصر على فكرة أن القوة وحدها تصنع التاريخ ، وعلى وهم أن الغلبة آنية لا استراتيجية.

+

ما أكثر الأحداث الجلية التي وقعت في سهل الحديبية ، وما أكثر من رواها. لكن يكفينا اليوم - كما قال الشيخ - أن نختم بالمسك الفوّاح المبارك.

ورفع صوته بتخشّعٍ ، كأن المكان عاد مسجدًا ، والزمان عاد وحيًا:

بسم الله الرحمن الرحيم

[إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك، ويهديك صراطًا مستقيمًا، وينصرك الله نصرًا عزيزًا] .

ثم قال بهمسٍ خاشع:

صدق الله العظيم.

وساد الصمت ، لكنّه لم يكن صمت الفراغ ، بل صمت الامتلاء.